
أنيس منصور
أجيال
من بعدنا

أنيس منصور

أجيال من بعدنا



اسم الكتاب: أجيال من بعدنا.

المؤلف: أنيس منصور.

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.

تاريخ النشر: الطبعة الثانية - إبريل 2009م.

رقم الإيداع: 2007 / 21136

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2561-7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 33466434(02)-33472864(02) فاكس: 33462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - السادس من أكتوبر
ت: 38330287 (02) - 38330289 (02) - فاكس: 38330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص. ب: 96 الفجالة - القاهرة
ت: 25909827 (02) - 25908895 (02) - فاكس: 25903395 (02)

مركز خدمة العملاء: (02) 25909827
البريد الإلكتروني لخدمة العملاء:
customerservice@nahdetmisr.com
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: (03) 5462090
مركز التوزيع بالمنصورة: 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي - متفرع من شارع عبد السلام عارف - مدينة السلام
ت: (050) 2221866

الموقع الإلكتروني: www.nahdetmisr.com

خدمة العملاء: 16766



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

وكان رسول الله يكررها ثلاث مرات!

يبدو أنني مضطر إلى أن أقول وأعيد وأزيد – وأكرر ما سبق أن قلته، فقد علق قارئ فاضل على أن التكرار ممل إذا كان بلا سبب.. وإنما أنا أعيد وأزيد لكي أكون أوضح. فمن أجل الوضوح تهون الشتائم والنقد واتهام الكاتب بالإفلاس..

وحكاية الشاعر الكبير أبي تمام معروفة عندما قال شعرًا غير مفهوم قيل له: لماذا لا تقول ما يفهم الناس، فأجاب: ولماذا لا يفهم الناس ما أقول!

وليس الحق مع أبي تمام..

وهناك حادثة مماثلة للفيلسوف المشهور شوبنهور. فقد أصدر رسالة الدكتوراه التي عنوانها «العالم كإرادة وامتثال». وكان كل يوم يمر على المكتبات ليعرف إن كان أحد قد اشتراها. ومضى وقت لم يشترها أحد. وفي يوم اختفت نسخة فسأل سعيدًا فقيل له إنه أستاذ الفلسفة في الجامعة. فذهب إليه يسأله، ولم يجامله الأستاذ وإنما قال إن الكتاب غامض معقد!

فقال الفيلسوف عبارته الشهيرة: هل في كل مرة يفتح إنسان كتابًا ويسمع حمارًا ينهق.. لماذا يكون صوت المؤلف دائمًا؟!

وليس الحق مع الفيلسوف!

والحقيقة أن الكتاب تحفة أدبية فلسفية. وشوبنهور من أمتع الكتاب وأروعهم. ولم يكن أستاذ الفلسفة صادقًا وإنما كان حاقدًا على الفيلسوف العظيم!

ومن الأحاديث التي تروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقول ليفهمه كل الناس.

وقالت السيدة عائشة أيضًا: إن رسول الله إذا قال كلمة كررها ثلاث مرات لكي نفهم منه.

فهو صاحب رسالة لكل الناس.. عامة الناس وخاصتهم، وهو أشد الناس حرصًا على أن يكون مفهومًا وإن كان يدعو إلى الإطالة في الصلاة والقصر في الخطبة. وتقول السيدة عائشة إنه كان يفعل ذلك «مخافة السآمة علينا»..

والهدف واحد. وتأسيًا بالرسول عليه الصلاة والسلام، فأنا أريد أن أكون في متناول كل العقول صغيرها وكبيرها.

... ولكنه اختار أن يموت!

كان في نيتي أن أبدأ هذا المقال هكذا: المصيبة أنه يعرف! وعدلت عن هذه البداية لأن الكثير من الناس ينزعجون من مثل هذه الكلمة فما عندهم من مثل هذه الكلمة ومرادفاتها كثير: في الحياة والعمل والأمل والعلاقات الاجتماعية والسياسية. إنه صديق طبيب. يعرف كل شيء عن مرضه وصعوبة العلاج وعذاب أمه – فهو ابنها الوحيد. وزوجته أحبته طول حياتها فهما جاران وزميلان في الدراسة.

وفوجئت بمعلومات غريبة تقال عنه. وهو مصدرها. ولكني لم أصدق. فأنا أعرفه. وأعرف فلسفته في الحياة. سألته: كيف تقول عن نفسك أنك لص وكان لديك مشروع قتل فلان وعلان.. إني لا أصدقك!

فأقسم إنه قال ذلك لكنه ليس لصًا ولا شاذًا ولا قاتلاً ولا خائنًا. وإنما هو قد ضاق بالحياة والناس وبالشفاء وأنه حاول أن يدفن نفسه قبل أن يموت وكثير من البائسين يفعلون ذلك..

سألته فقال: المصيبة أنني طبيب وأعرف أن الدواء ليس شافيًا ولا الصبر..

وأغرب من ذلك أنه شرع في كتابة رواية ولم يكملها.. وتمنيت لو اتسع وقتي لأكملها. أو أطلب إلى أحد من الأصدقاء أن يفعل ذلك.

فالجزء الذي كتبه من الرواية بديع. ولكنه تعمد ألا يكمل الرواية.. كأنه يريد أن يقول لكل شيء: لا.. لا يهمني.. لا قيمة لي لما قلت ولما سوف يقول الناس ما دام كلامهم لن أسمعه!

إنه شخصية معقدة. وأدركه القرف مبكرًا وكان كلما زرته كرر بيت المتنبي. وكان هذا البيت قرارًا نهائيًا. قال المتنبي:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا/ وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا.

ومنذ أيام انتحر. مخلفًا-خطابًا على الفراش، الخطاب موجه لي. فتحت الخطاب، وجدت ورقة بيضاء. لم يشأ أن يقول. فليس عنده كلام لي ولا لأحد أو للدنيا كلها..

وقال لي الطبيب المعالج: المصيبة أنه كان يعرف أن شفاءه ممكن. ولكنه رفض الشفاء. فقد صفى حسابه وأغلق ملفاته ووضع نقطة كبيرة في نهاية سطر حياته العلمية والأدبية!

.. عدوها وصديقها معًا؟!

المرأة تموت في التغيير، وتموت منه أيضًا. فهي تغير لون شعرها وشفتيها وفساتينها. وترى أن عدم التغيير موت ولذلك تجري وراء الموضة.. ولا تناقش. حتى القصيرة ترتدي القصير وحتى الطويلة ترتدي الطويل.. وتكشف عن ساقيها ولو لم تكونا جميلتين.. إنها الموضة: فلسفة التغيير الدائم!

وتكره أن تتغير بشرتها وتظهر الكرمشة على وجهها والبياض في شعرها. وتذهب لطبيب التجميل تحذف الشحم هنا وهناك، وتقوم بتعديل الأنف وشد الوجه ونفخ الوجنتين والشفتين. ولا يكاد يختلف زوجها أو حبيبها بعض الاختلاف عن الذي اعتادت عليه حتى تقول: ما الذي غيرك؟

أي لا بد أن هناك امرأة أخرى في حياته. وهي قاعدة في علوم الفلك.. فعندما يرصد العلماء أحد النجوم أو أحد الكواكب ويرون أن حركته أو دورانه ليس كاملاً.. وأنه يتأرجح يستنتج العلماء أن هذا الجسم السماوي قد وقع في جاذبية.. عن الذي غير ولخبط مدار الكوكب.. وهي نفس القاعدة عند المرأة، فما دام الرجل قد تغير فهو وقع في المجال المغناطيسي لجسم آخر أقوى وأشد.. مع أنه من

الطبيعي أن يتغير الرجل كما تتغير المرأة. ولكن عدم الشعور بالأمان عند المرأة هو الذي يجعلها تتوهم أن هناك سببًا للتغير.. ورغم أنه من البديهيات أن الرجل ليس قطارًا يمشي على حديد في طريق مرسوم مدروس معروف مقدمًا لا يتغير ولا يتبدل. وتصبح مهمة الرجل بعد ذلك أن يؤكد أنه لا توجد واحدة في حياته..

والمرأة لا تعرف أن من صالحها أن يتغير الرجل. ولو عرفت أن التغيير يستميل الرجل إليها أيضًا، لما اعترضت ولكنها لا تطيق ذلك.

والشاعر كثير عزة عندما لاحظت معشوقته شيئًا من ذلك حاسبته فقال عبارته الشهيرة:

ومن ذا الذي يا عَزُّ لا يتغير؟!

صناعتهم الكلام وليس النطق

فاقد الشيء يعطيه. فالشمس التي لا حياة فيها هي مصدر الحياة.. وأساتذة الكلام الحلو لا يعرفون كيف يتكلمون: مثل أبي تمام وأمير الشعراء أحمد شوقي وإبراهيم ناجي، كانوا لا يحسنون النطق. فكان حافظ إبراهيم يلقي قصائد شوقي.. وكان كامل الشناوي يلقي قصائد إبراهيم ناجي.

وكان الشاعر الإيطالي دانتي الليجيري يجد صعوبة في النطق حتى كانت تضيق به الفتيات. والفتاة التي أحبها هي التي صبرت عليه ولم تكن تحبه. فقد تزوجت العمدة. ولكنه عندما ألف «الكوميديا الإلهية» كانت محبوبته بياتريتشه رفيقة في رحلته بين التطهر والفردوس.. وكان هو الذي يتكلم ويقول، أما هي فلم تقل. ولم تسأل عن شيء ولم يقل لنا الشاعر دانتي إن محبوبته تعذبت بسبب هذه الرحلة الطويلة وحديثه الأطول.

وحدث أن عرف الشاعر فتاة جميلة قبل بياتريتشه وقال لها: أريد أن أسمعك قصيدة قلتها فيك.. ويقال إنها نامت لا من سحر الذي قال ولكن انتظارًا لأن يكمل بيتًا واحدًا وينتقل إلى بيت آخر!

وكان الشاعر الألماني دوفالس يحب شقراء اسمها صوفيا، وكان يقول إنه أحب الفلسفة لأنها فيلو – صوفيا – أي حب صوفيا وعشقها، وكان يقول لها: إذا نظمت شعرًا فأرجوك أن توقظيني من حين إلى حين!

ويقال إن الحريري كان خفيض الصوت ولكن الناس لا يجلسون إلا بعيدًا عنه.. وكانوا لا يسمعونه فيضطرب في الكلام. ومات ولا يعرف السبب. فقد كان مثل أينشتين لا يستحم إلا مرة كل ثلاثة أشهر!

نحن (اللامنتمي) والأدباء الساخطون؟

من قراءة سريعة لموضوع أعرفه تمامًا وبكل تفاصيله ومقدماته وخواتيمه: أدب الشبان الساخطين لقد أصدر عميد السخط في الستينات في بريطانيا كولن ولسون كتابه البديع «سنوات السخط» وحكى كيف أنه لم يدخل الجامعة وأنه بدأ الكتابة شابًا صغيرًا.

ثم أصدر كتابه الممتع «اللامنتمي». وقد ظهرت الترجمة العربية لهذا الكتاب، أما الذي اختار هذه الكلمة فهو أديب عراقي اسمه أنيس زكي حسن. وكان الاختيار بارعًا وقد استخدمنا هذا التعبير وراءه..

حتى عندما أصدر الكاتب الوجودي ألبير كامي رواية «الغريب» قلت وقلنا، بل الأفضل أن يقال اللامنتمي. وهو يقصد بهذه التسمية الإنسان الذي لا تربطه بالواقع صلة مادية. إنه موجود وبس، وليس مرتبطًا ولا ملتزمًا. إنه يفعل ما بدا له، وما بدا له هو الذي يهمه وليس ما يبدو لغيره. والأديب كولن ولسون عرف الجوع والبطالة والنوم في الشوارع، فقد اشترى كيسًا ينام فيه أمام البيوت، فلما جاء الشتاء كان ينام في الإصطبلات. ويوم جاء أبو صديقته ومعه كرباج قال لها: هذا الذي اخترته شاذ جنسيًا. والحقيقة أنه ليس كذلك، وإنما وقعت في يده أوراق مذكرات لرواية لم يكتبها كولن ولسون بعد.

وبعد أيام من صدور كتاب «اللامنتمي» ظهرت مسرحية أديب ساخط آخر هو جون أسبورن عنوانها «انظر وراءك في سخط».. وكانت صرخة في وجه المجتمع البريطاني.. وفي ذلك الوقت ظهر ناقد شاب فذ هو الذي قدم هذه المسرحية على أنها أروع ما عرفت اللغة الإنجليزية في خمسين عامًا – إنه الناقد كينيث تاينان..

وكما كنت داعية للفلسفة الوجودية، كنت أيضًا للأدباء الساخطين. فهناك وجوه شبه بيننا كثيرة، فكلنا نقيم تماثيل من الذهب للحرية الفردية والمسئولية مهما كانت ثقيلة، فليس مسئولاً من لم يكن حرًّا وليس حرًّا من يفعل وكأنه يضع دستورًا للبشرية. وقالوا عنهم وعني: ملحدون منحلون، ولا كنا منحلين ولا نحن كفرة. وإنما نقول لا، ونكون رافضين لأفكار كثيرة، ونقول نعم لأفكار وقضايا ومبادئ أكثر. ولم نتفرج على الدنيا في ذهابها وإيابها.. وإنما كان ولا يزال لنا رأي وقدرة على التعبير والأمل في التغيير.

صورتان للملكة فريدة!

قالت لي الملكة فريدة يرحمها الله، وكانت من أعز الأصدقاء وأكثرهم احترامًا للناس واحترام الناس لها. كانت ملابسها بسيطة ولكنها تبدو دائمًا ملكة في المشية والجلسة والقيام والقعود وإذا تكلمت.. وكنا قد اتفقنا على أن أكتب مذكراتها لتعرض وتشرح وتدافع عن نفسها وعن الملك فاروق الذي ليس بهذه الصورة السيئة التي تورطت فيها الصحف المصرية والأقلام ورجال الثورة ومؤرخها الأوحد – ولم تملك أن تقول، وإذا قالت فلن ينشره أحد. وإذا نشر، فلن يقرأه أحد!

قالت لي: عندي صورتان هما ملخص كل ما حدث..

أما الصورة الأولى ففي ثوب الزفاف.. عروس حلوة أحببناها.. ويوم طلقها فاروق غضبنا عليه ولعناه. في هذه الصورة كانت سعادة الدنيا كلها في عينيها وشفتيها وفي عيوننا أيضًا.. ولكن أهم ما في الصورة العقد الماسي النادر الذي جاءها هدية من ملك إيطاليا.. وقيل ثمنه مليون وقيل مليونان، ولكنه تحفة فنية نادرة المثال، وصورة أخرى لهذا العقد وقد تدلى من عنق بنت واحد من ضباط ثورة يوليو، ولا يهم إن كان العقد يتماشى مع العنق أو

الفستان الذي ارتدته هذه السيدة بنت الثائر الطاهر الذي لا يسرق مال الشعب لا هو ولا ابنته. وهذه السيدة ذهبت بهذا العقد تبيعه في بلجيكا. فانقلب البوليس الدولي في كل مكان، فالعقد مسجل وله رقم ومعروف من الذي اشتراه وإلى من أهداه. ولا يمكن بيعه. واتصل الجواهرجي بالسفارة المصرية: الحقوا.. اضبطوا السرقة والنهب لعرش مصر!

ولم يكن هذا العقد فقط هو الذي نهبه الثوار، وإنما الكثير جدًّا من مخلفات الأسرة المالكة ومن قصورها.. وهي حكاية طويلة. تقول الملكة فريدة رحمها الله: نحن الذين نمثل العهد الأسود البغيض لا نجد ما نأكله، وهم أبناء النقاوة الثورية يرتعونفي الملايين – عجبي!

وعجبي أنا أيضًا!

فخامة الرئيس قال وما قال؟!

كنت آخر من قابل شاه إيران في القاهرة. وكان بيننا حديث طويل. وقال كل ما في نفسه وأبدى مخاوفه من المستقبل الذي ينتظر إيران على أيدي الخميني.. على عكس زوجته الشاهبانو وقد ارتدت ملابس الحداد وقالت وأطالت ويمنتهى الصراحة. وعندما نهضت أشكرها معزيًا ومودعًا قالت: ممكن أرجوك في شيء.. ألا تنشر شيئًا مما ذكرت..

وقد رأيت الشاه في طهران أيام مهرجانات برسبوليس: كل الأبهة والعظمة والفخامة والاعتداد بالنفس والإيمان بمستقبل إيران الزاهر– هو الذي قال.

ثم قابلت الرئيس خاتمي في القاهرة أخيرًا وفي إحدى السفن في النيل على عشاء. وكنت أول من سأل الرئيس الإيراني، قلت: ما الخلاف بيننا؟ فأجاب بسرعة: ليس بيننا وإنما خلاف بين الزعماء!

وليس هذا صحيحًا..

ولما أجاب لم تقنعني الإجابة. فنهضت وقلت: فخامة الرئيس لا يسعني إلا أن أستعير ما قالته الملكة فكتوريا عندما أرادوا أن يفرفشوها.. وأتوا لها بكل أنواع الممثلين والمضحكين لعلها ترضى. ولكنها قالت: ولكننا لم نستمتع!

فهمسوا في أذن الرئيس خاتمي أنني لم أسعد بما قال..

وكان الرئيس خاتمي يكرر أنه قد شفي من داء الرياسة وأنه على حريته يقول ويفعل. وأنه لا يعبر عن وجهة نظر أحد، وليس موفدًا من الدولة ليقول عنها شيئًا لا يرضاه..

وفي الحقيقة لم يقل شيئًا أو أنه قال وما قال.

وجلست إلى جواره في العشاء. وقلت: يا فخامة الرئيس ليس صحيحًا أنك شفيت من مرض الرياسة، فما تزال رئيسًا في كلامك وتحفظاتك.. وقد جئنا نسمع رئيسًا سابقًا ففوجئنا بالرئيس الحالي..

وكأننا رأينا منه طهران وقد وضعت اسم الذي اغتال السادات على أحد شوارعها.. ثم أقامت له صورًا في أماكن بارزة. إنها إهانة لرئيس مصر وشماتة في اغتياله. ثم يريدون أن نصفح ونصافح.. ولكن الرئيس خاتمي لا وعد ولا حاول ولا قال (ولا لقيناه)!

وجاء جنود يبيعون الهوان!

نحن في زمن الذين يطبعون القبلات ثم ينشرونها- أي زمن المذكرات الجنسية الفاضحة. ربما كانت الغلبانة الأميرة ديانا إحدى الضحايا ولن تكون الأخيرة، فقد باعها وخانها كل الذين عملوا في خدمتها!

وقبل ذلك نشرت جميلات هوليوود مذكراتهن بعد أن ودعتهن الحياة والأضواء والجمال.

فريتا هيوارت أدمنت المخدرات، وتنحت عن السينما ونشرت مذكراتها، وذكرت أسماء عشاقها. وجاء الناشرون يعلنون أن جزءًا ثانيًا بأسماء العشاق تحت الطبع، فتزاحموا عليها يشترون صمتها. وباعت الصمت بالملايين وعاشت مفضوحة وماتت فاضحة!

وكذلك جميلة الجميلات النمساوية هيدي لامار وهي التي سجلت عندما هاجرت من النمسا إلى أمريكا أنها المخترعة الأولى للتليفون المحمول؛ فقد ابتكرت شيئًا مماثلاً للاتصال بخطيبها الذي كان يحارب ضد هتلر.. وهي الأخرى تطوع لكتابة مذكراتها عدد من الصحفيين. وكسبت وكسبوا الملايين..

وبعد وفاة الرئيس الفرنسي ذئب النساء ميتران ظهرت مذكرات لعشيقاته: ممثلات وقارئات فنجان ومشتغلات بالتنجيم. وقد أجمعن على أن ميتران ذئب ساحر لا تستطيع أية أمرأة أن تقاوم جاذبيته، وهذا اعتراف منهن بذلك!

ورغم استنكار الرأي العام في بريطانيا مما فعله خدام الأميرة ديانا، فإن مذكرات من نوع آخر توشك أن تظهر في الأسواق. في الصحف أولاً وفي التليفزيون ثم بعد ذلك في كتب. إنهم الرهائن الإنجليز عند إيران. لقد وقعوا في شباك الإغراءات الصحفية. وضع الشعب الإنجليزي كيف يبيعون الهوان والإذلال.. كيف يبيعون عارًا قوميًا بالفلوس. ولكن بعملية حسابية وجد الرهائن: أن العار بالفلوس أفضل كثيرًا من العار المجاني!

ولكنَّ كتابًا واحدًا لا يكفي!

لم يحدث أن حملت معي كتابًا واحدًا إلى أي مكان. وإنما أحمل الكومبيوتر ودوائر المعارف؛ لأن كتابًا واحدًا لا يكفي ولا يمتع. ولا يسعف. فالذي احتاجه كثير، والذي أريد أن أعرفه أكثر. ودائرة معارف واحدة لا تكفي..

وكان الأديب الفرنسي أندريه جيد يقول: يمتعني من الصحف صفحات الجرائم، ففيها كل أشكال الضعف الإنساني، وهذه متعتي!

وكان العالم الفيزيائي أينشتين يقول: إن أروع ما يمكن قراءته هو القصص البوليسية؟ فالمؤلف يعرف الحل ولكنه يتفنن في إخفائه عن القارئ. إنني أحسده لأنه يعرف الحقيقة!

وكان الشاعر الألماني جيته يحتفظ بمؤلفاته ليعيد قراءتها ويكتشف عيوبه في الأسلوب والتحليل.

ولو وضعوني في السجن ومعي مؤلفاتي، فإنني لا أمد يدي إليها. ولا أستطيع. وأكبر عذاب يصادفني ليس أن أكتب ولكن أن أراجع كتبي لإعادة طبعها. صعب جدًّا أن أقرأ ما كتبت. فإنني أكتشف فيها ما يضايقني. ولست في حاجة إلى المزيد من الضيق من نفسي ومن الناس!

وكنت أحسد سيدة الغناء العربي أم كلثوم أنها تحب كثيرًا جدًا الاستماع إلى أم كلثوم. وقد سمعتها في إحدى المرات تقول: الله يا سومة!

ويروى عن الوزير الصاحب بن عباد أنه كان كلما سافر حمل معه كتبًا على ظهر بعير أو اثنين أو ثلاثة.. ولكن عندما ظهر كتاب لأبي الفرج الأصفهاني، اكتفى بهذا الكتاب، سعيدًا بذلك. ورأى أن كتابًا واحدًا لا يكفي!

ويقال إن الشاعر الفارسي سعدي إذا سافر حمل معه كتب أبغض المؤلفين إليه. ولما سألوه. قال: سئل أحد الناس ممن تعلمت الأدب؟ قال: من واحد قليل الأدب، فكلما فعل شيئًا امتنعت عنه!

ولكنه ثمن فادح أن أضايق نفسي، فلماذا لا أختار ما يمتعني وأن أفعل مثله. وبذلك أتعلم الأدب من واحد شديد الأدب!

هل تعجبك الصلصة؟ نعم!

– تحب الصلصة؟

– صلصة إيه؟

– صلصة ساخنة بالشطة!

– أعوذ بالله!

– ولكنها سوف تعجبك.. تعال..

–....

وكنا في نيويورك. وكان الجو باردًا مكفهرًا كئيبًا، فتذكرت مسرحية «القرد كثيف الشعر» للأديب الأمريكي أونيل.. عندما نزل البحارة المرهقون وعلى وجوههم زيت أسود وشحم. ووقفوا إلى جوار ناطحات السحاب.. إنها جدران شاهقة جامدة باردة لا قلب لها كالمدينة لا تبالي بهم.. وكذلك كان شعوري في أول زيارة إلى نيويورك.

ولكن صاحبي قرر أن نمشي كأننا نمل يدب على ألواح من الثلج. هم البشر. وفجأة وقفنا أمام كباريه باهر الألوان الحمراء والزرقاء وتعصف الموسيقى بكل من يقترب من المكان، تهدده أو تستدرجه.

ودخلنا.. أما الأجسام فسمراء ثعبانية الحركة، الراقصون والراقصات كأنهم يسبحون في محيط هائج من الموسيقي الداوية والطبول العاوية: ذئاب وكلاب وثعابين. وانتحيت مكانًا قصيًا. وقال صاحبي: ما رأيك؟

قلت: في أي شيء؟ قال: في الصلصة!!

لهذه الموسيقى والطبول والرقصات يسمونها موسيقى (الصلصة) أي الموسيقى الخليط بين الروح الإفريقية المهاجرة المعذبة والتي التقت بالروح اللاتينية الحيوية الساخنة!

وموسيقى الصلصة هي كوبية الأصل. ولكن المهاجرين من أمريكا اللاتينية إلى نيويورك أضافوا وأبدعوا وأشعلوا النار في الأجساد الشابة فكانت هذه الرقصات: رومبا ومامبو وتشاتشا ودانتا..

وأذكر يوم انعقاد مؤتمر القارات الثلاث في كوبا سنة 1964 أن ذهبنا مع الرئيس كاسترو نزرع أشجار التضامن بين إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وكانت الأمطار غزيرة والأرض موحلة. ولكننا تماسكنا بالأيدي حتى الرئيس كاسترو، ورقصنا ولم نكن نعرف أنها هذه هي الصلصة. وهم في أمريكا اللاتينية ينفقون فائض الحيوية والسخط والغضب في الغناء الراقص أو الرقص الغنائي الإفريقي الكوبي الملتهب!

الشاطر والمشطور والقهوشية؟!

لا أدعي أنني استطعت أن أعرِّب بعض الكلمات الفلسفية، ولكن رجلاً عظيمًا استطاع. إنه أستاذنا عبد الرحمن بدوي الذي قام وحده بترجمة مئات المصطلحات الفلسفية وأصدر معجمًا فلسفيًّا من تأليفه.

وكل المصطلحات في الفلسفات الحديثة كانت من ترجمته، ومن نحته هو. وقد أفلح في أن يجد عند الفلاسفة: الفارابي وابن سينا وابن رشد تعبيرات، هي بالضبط ما أراده الفلاسفة الألمان المعاصرون الذين نحتوها من اليونانية واللاتينية.

وبدا لي أن أترجم بعض الكلمات التي صادفتني، وترجمتها. وأصدر المجمع اللغوي بيانًا يقول فيه: إن هذه المصطلحات ليست من صنعه وإنما أنا الذي اخترعتها. وهذا صحيح. ولم أقل إنها من إبداعات المجمع اللغوي.

مثلاً وجدت في اليابان بيوتًا للشاي. ورأيت أن أختار لها اسمًا هو: مشهى على وزن مقهى. ورأيت أن أترجم كلمة كافتيريا المكونة من كافيه وتريا.. أي قهوة وشاي. فقلت القهوشية. ورأيت في أمريكا أجزخانة تبيع الأحذية أيضًا فقلت: نسميها أحذاخانة!

أنا الذي قلت، وليس المجمع اللغوي..

ولكن أشهر ما نسب إلى المجمع اللغوي ما ابتدعه الشاعر كامل الشناوي عندما أراد أن يعرف السندوتش فقال: شاطر ومشطور وبينهما طازج!

وانتشرت هذه العبارة على أنها من إبداعات المجمع اللغوي مما أضحك الناس عليه!

وعندما كنت طالبًا في قسم الفلسفة وكنت طالب الامتياز الوحيد، وطلبة الامتياز عليهم أن يدرسوا علومًا أخرى غير الطلبة العاديين، فكنت أدرس اللغة الألمانية وعلم الاجتماع الإنجليزي وعلم الجمال. وكان أستاذي في علم الجمال هو منصور باشا فهمي. ووقفت عند المرادفات العربية المشتقة من كلمة (فرد).. قلت ما قاله أستاذنا عبد الرحمن بدوي: فرد وفردي وفرداني وتفردي وفردانية والإفراد.. ولكن ما المعنى؟ ورأى منصور باشا فهمي أن أبعث له برسالة على المجمع اللغوي وسوف يعرضها على المجلس وسوف أتلقى الرد سريعًا!

ومضت ستون عامًا ولم أتلق ردًا من أحد!

مشكلتنا أننا لا نعرف متى نعمل ومتى نستريح؟

لن تصدقني لأنك لا تحب الحقيقة.. فأنت مريض وأنا أيضًا.. ولا يوجد إنسان واحد سليم الجسم والعقل في أي مكان. وكل ما تريده الأمراض هو أن نعطيها فرصة. ولا شك أن الإرهاق والقلق أو الخوف والجوع هي جميعًا فرصة متاحة لكل الأمراض لكي تظهر في الوقت المناسب والمكان المناسب..

والذي لا يعمل أكثر تعرضًا للمرض من الذي يعمل. ومعظم الناس يعملون. ومعظم الناس مرضى، وقد يكون العمل اليدوي أسهل من العمل العقلي– هذا رأي الجالسين على المكاتب– ولكن الإرهاق واحد سواء جسميًا أو عقليًا..

والمصابون بالجنون من الذين يعملون بعقولهم أكثر من الذين يعملون بأيديهم..

ومشكلتنا ليست العمل. وإنما لأننا لا نعرف أن نفصل بين ساعات ومكان العمل وساعات ومكان الراحة، فنحن نحمل مكاتبنا ومقاعدنا والموظفين على رءوسنا إلى البيت.. وعلى المخدة وتحت اللحاف. وبذلك يتحول البيت إلى مقبرة ندفن فيها المكتب وكل الموظفين. والمرأة العاملة تنقل إلى مكان العمل هموم البيت والأولاد

والزوج.. فإذا عادت إلى البيت حملت معها هموم المكتب الذي تراكمت فيه هموم البيت أيضًا!

فإذا قرر الإنسان أن يُحيل نفسه إلى المعاش ليستريح يتعب أكثر مما يتصور؛ لأن الإحالة إلى المعاش مثل قطار منطلق يتوقف فجأة ويخرج على الشريط الحديدي وتنقلب القاطرة والركاب.. فالإحالة إلى المعاش عطل مفاجئ.. هبوط اضطراري لطائرة.. دش بارد على زجاج ملتهب.. لمسة من عزرائيل؟

فقبل الموت بساعة يصاب الإنسان بما يسمى «صحوة الموت»، وهذه الصحوة معناها: صفاء الرؤية وجلاء السمع وشفافية كل الحواس لأول وآخر مرة. ولا نستطيع أن نستمتع بهذه الساعة النادرة.. تمامًا كما لا يمكن أن يستمتع بمنظر القمر من يسقط بمظلة في قلب البحر! وقد استطاع بعض الرجال الشجعان أن يقولوا في الدقائق الأخيرة من هذه الساعة كلمات باقية.. ونصحونا بأشياء كثيرة.. ولكن من المؤكد أن عباراتهم كلها ذات معنى واحد: إذا كانت الحياة مرضًا فالموت أعظم طبيب.

إذن ما هي الحكمة في أن نولد من أبوين مريضين وأن نستأنف الحياة بأن نعيش مرضى؟

إن هذه الحكمة سوف نعرفها فيما وراء هذا العالم!

نعم لأن السكوت أكرم

- تعرف كل هذا وتسكت؟

سؤال من إحدى المجلات الفنية. أما الذي أعرفه عن المطربة المصرية الإيطالية الفرنسية داليدا، فكنت أعرف ورأيت وسمعت وجلست إليها وأطلت وجلست وأكثرت، واستمتعت وتنهدت وتمنيت.

ولكن لم أجد أنني قد انفردت بهذه المشاعر، فغيري قد فعل مثل ذلك وأكثر. فالمحبون بالألوف والمعجبون بالملايين والباكون عليها بالعشرات، وكنت واحدًا من كل هؤلاء. وعندي كلام أقوله، ولكن لا أرى أنها شجاعة أن أقول وأقول عن التي لا تستطيع أن تراجعني، وليس من الأخلاق الكريمة أن أقول وأعيد وأزيد وأخترع روايات وحكايات.

ولكن أستطيع أن أقول إنني أعجبت بها، وانشغلت وتشاغلت وقال الشاعر القديم:

وكـــان مـــا كـــان مما لست أذكـــره
فــظــن خيرًا ولا تســأل عــن الســبب

أو اسأل عن السبب وسوف أقول ما يمليه ضميري!

لقد كتبت لها وكتبت لي، ولا أرى أن الذي قلته له قيمة تاريخية ولا الذي قالته. ربما كلمة واحدة في كل رسائلها هي التي أعجبتني،

وقد لا تعجب أحدًا سواي. فما قيمة أن أنشر صورة لخطابي. وإذا نشرتها فلكي أقول للناس ماذا؟

وجاءت إلى مصر فنانة إيطالية اسمها إليانورة روسي دراجو.

ويوم ارتدت أوراق الورد – مايوه على شكل أوراق الورد– وقف الناس يتفرجون على أجمل مخلوقات الله.. وشعرت بالخجل.. فإن أحدًا لا يصدق أن تكون هذه صديقة لهذا – أي لي أنا.. يكفي أن ينظروا إلى ملابسها وإلى ملابسي، وشكلها وشكلي. فهل يصدقني أحد أن أروي ماذا دار بيننا عند سفح الهرم ثلاثين يومًا. فما قيمة أن أقول؟ وقد ظهرت إليانورة في عدد من الأفلام، من بينها: الشهوة والدب والقطب الشمالي.. ثم خطفها من يملك الملايين واختفت مثل مئات الملايين تربي أطفالها..

وقد أرسلت لي خطابًا معطرًا، فبفرض أنني نشرت خطابها الذي من ثلاثة أسطر، كيف أقنع من يقول إنه رد على خطاب لي من أربعين صفحة كتبته أنا بالحبر أو الدمع أو الدم..

– نعم أعرف كل هذا وأسكت؛ لأن السكوت أكرم وأرحم!

نصيحة: هاجروا تصحوا جميعًا!

كل مواطن يفكر في الهجرة يتصور أن هناك مشاكل كثيرة ستواجهه في البلاد الجديدة.. وأنه سوف يقضي على هذه الصعوبات.. وهذا هو الأمل وقد نجح من قبله كثيرون. وإذا فشل رغم كل شيء، فإنه سيعود إلى وطنه، وهذه العودة شاقة على نفسه.

ولذلك يجب أن نهون عليه هذا الموقف.. فليس كل من يحاول ينجح.. وليس كل من ينجح سيكون مليونيرًا.. فمن الممكن أن يكون المهاجر مجتهدًا في بلده، ولا يواتيه الحظ في البلاد الجديدة.. ومن الممكن أن يكون مقهورًا في بلده ويجد فرصًا أحسن وظروفًا أيسر.. فيكون له النجاح الباهر هناك.. هذا ممكن جدًا..

وقد نجح ألوف المصريين في الخارج.. وفشل العشرات.. وحاولوا العودة وعاد منهم كثيرون.. وقد عاد كذلك من أمريكا وأوروبا مئات الألوف من الأوروبيين من الإيطاليين واليونانيين والإسبان..

وفي القرن التاسع عشر رجع إلى أوروبا أكثر من ثلاثة ملايين نسمة كانوا يعيشون في أمريكا.. لأن الحياة لم تعجبهم.. وعاد إلى اليابان كثيرون من أبنائها بعد الحرب العالمية الأولى.. وعاد إلى الصين والهند أيضًا..

فالمهاجر إنسان يبحث عن جو أحسن، اقتصاديًا وسياسيًا وشخصيًا.. فإذا لم يجد ما يريد عاد إلى وطنه..

ونحن بلا تقاليد في الهجرة.. ولا تاريخ.. فنحن لم نعرف الهجرة إلا أخيرًا جدًا.. وليست عندنا كتب أو خطط ولا معلومات كافية عن البلاد التي يهاجر إليها المصريون ولا عن مدى حاجة هذه البلاد إلينا.

ولا شك في أن الظروف الدولية المضطربة وحالة الحرب المرهقة، كانت عقبة تسد موارد الرزق أمام المهاجرين.

شيء واحد يجب أن يكون واضحًا لدى كل الراغبين في الهجرة، أن الدولة تريد أن تنظم الهجرة لا أن تمنعها؛ لأن هذا مستحيل.. فلا توجد طريقة لمواجهة هذه الزيادة الهائلة في عدد المواليد وعدد المتعلمين مع ضيق الأرض الزراعية وضيق النفوس بسبب الضغط السكاني، إلا العمل في الخارج أو الهجرة!

عش أراجوزًا.. تعش سعيدًا!

إن كانت صحتك تهمك فلا داعي لأن تأكل في الظلام.. ولا أن تأكل بسرعة.. ولا أن تأكل من دون أن تتكلم.. ومن الأفضل أن تهز رجليك.. ومن حين إلى حين اضرب بطنك بيدك، وإن وجدت مناسبة للضحك فاضحك حتى لو كنت تأكل وحدك – آخر ما وصل إليه الطب النفسي لتنظيم الجهاز الهضمي وتهدئة أعصابك بعد ذلك..

وكما هي العادة جرَّب الأطباء هذه النظرية على الكلاب والقطط والفئران.. والذي ينفع للكلاب ينفع معنا.. فلاحظوا أن الكلاب لا تأكل في الظلام.. وأن بعض الكلاب إذا حبست في مكان محكم لا ينفذ إليه الضوء حتى ضوء النجوم.. تتوقف عن الأكل وتصاب بالإمساك بعد ذلك.

ولوحظ أن حيوانات الغابة تسحب فريستها من الأعشاب والأوكار إلى الهواء الطلق.. ثم تترك الفريسة بعض الوقت وتعود إليها.. القطط تفضل ذلك مع أنها لا تأكل فريسة اصطادتها، وإنما هي الغريزة التي هي صورة باقية لتاريخ هذه الحيوانات أيام كانت مفترسة من عشرات الألوف من السنين. وأهمية ما تفعله القطط هي أنها تأكل على فترات متباعدة، والكلام أثناء الطعام يحقق هذا الغرض..

والبهجة النفسية بالضحك تسهل الهضم والمضغ قبل ذلك.. وبعض العلماء يفسرون دموع التماسيح بأنها دموع الفرح.

ولما وضعوا الكلاب في الضوء والموسيقى – تمامًا كما يحدث لنا في المطاعم والكباريهات– وجدوها في أحسن حالاتها النفسية.. وأنها تناولت طعامها بهدوء وبكثرة، وأنها لم تصب بإمساك.. لكن لم تنس هذه الحيوانات تاريخها، فكانت تلعب بالطعام وتهجم عليه وتخفيه، ثم تعود تبحث عنه وتخرجه كأنه فريسة هربت منها..

ويرى العلماء أن الحل السعيد عند الإنسان والحيوان، هو أن يتناول طعامه في مكان أقرب إلى الكهف منه إلى البيت. بشرط أن يكون كهفًا مضيئًا موسيقيًّا...

والإنسان ليس أول من اخترع الكباريهات.. لقد سبقه إليها «ذئب البراري» الذي عندما يصطاد فريسته يختار مكانا شاعريًّا: في ظل شجرة عند نهر وفي مواجهة شمس الأصيل، وهو يدق بطنه في قطعة من الحجر، ويهز الشجرة لتحدث صوتًا موسيقيًّا!!

وإن كنت لا تزال تهتم بشيء، فاهتم بصحتك أولاً.. وإن كانت صحتك تهمك فجرب ذئب البراري!

بالقوة أنام.. بالقوة أصحو!

القرن الواحد والعشرون له صفات كثيرة، من بينها أنه عصر الإنسان الصغير أي الشعوب.. أو عصر الشيء الصغير أي الذرة.. أو عصر الفضاء أي السفر إلى الكواكب الأخرى.

ولكن من المؤكد أنه عصر القلق والأرق.. أو النوم قليلاً.. أو النوم بعنف واليقظة بعنف أيضًا.. أي استخدام المنومات ثم استخدام المنبهات أيضًا. وأننا مدمنون للاثنين معًا. أحكي لك تجربتي.. فقد كنت أضع إلى جوار سريري نوتة وقلمًا.. حتى لا تهرب مني أية فكرة واردة، أو شاردة.. فأسجلها بسرعة، لا بأس.. ثم وجدت أقلامًا تضيء في الظلام عندما تضغط عليها، أي من الممكن أن أسجل أفكاري بدون إضاءة كل نور الغرفة.. ثم وجدت نوتة لها موسيقى.. بمجرد الضغط عليها، تطلق موسيقى ناعمة، تدفعك إلى النوم وليس إلى اليقظة.. أو إلى الكتابة في هدوء موسيقى. وكان من نتيجة ذلك أنني لم أعرف النوم. وأبعدت القلم والورق من غرفتي، ورحت أتدرب على النوم، بمجرد وضع رأسي على المخدة لا أفكر في أي شيء.. أركز كل قدرتي على أن أطرد أية فكرة.. أي خاطر، إيمانًا مني بأن الأفكار لا تضيع.. قد تذهب بعيدًا ولكنها تعود.. لابد أن تعود، بل إن الكثير من الأفكار ترتب

نفسها، وتستعد للظهور بمجرد أن أصحو من النوم، فعقلي لم يكن نائمًا تمامًا.. وإنما كان يعمل على طريقته.. ويحل مشاكل أثناء النوم..

وقد اهتديت إلى كثير من الأفكار الجميلة، وحلول للمشاكل أثناء النوم.. أي أنها كانت تحل نفسها وأنا نائم.. والأفكار التي ترد على ذهني نهارًا ولا أكتبها. لا تهاجر.. ولا تهرب.. وإنما تتوارى لتعود مرة أخرى.. فلا شيء في العقل يضيع، ولا شيء في الذاكرة يختفي. وإنما كل شيء محفوظ هناك ومسجل وفي انتظار استدعائه.. تمامًا كالكمبيوتر الذي وضعنا فيه ملايين المعلومات. تظل هناك في انتظار إشارة منك..

وقد دربت نفسي طويلاً وكثيرًا على النوم بمجرد أن أدخل في الفراش.. وأنام كالطفل، لا صوت ولا حركة.. ولكن – مع الأسف – أنام قليلاً.. أربع ساعات، وفي حالات نادرة جدًا خمس ساعات. وبس! وإذا تعاطيت حبوبًا منومة، صحوت بعد ذلك بخمس دقائق.. دائمًا!! ولذلك حرمت على نفسي الحبوب المنومة مهما طال أرقي!! والناس يختلفون في عدد ساعات نومهم وفي مدى عمقها.. وهل ينامون نهارًا أيضًا.. علماء النفس ينصحون بأن تنام نهارًا ولو عشر دقائق. هذه الدقائق كافية جدًا لأن تريحك.. أن تريح جسمك وعقلك أيضًا.. ويرون أن عدد الساعات الكافية لأي إنسان هي سبع ساعات.. وإن كان الأرق نفسه لا يقتل.. فقد استطاع شاب أن يظل مفتوح العين 11 يومًا! ولكنه غير قادر على أن يقوم بأي عمل له قيمة.. إذن النوم

ضروري لكي تستريح، فإذا استرحت أصبحت قادرًا على أن تكمل حياتك. وقد أجرى العلماء تجاربهم على الفئران، فماتت بعد 14 يومًا من الأرق!

آخر كلام: حاول أن تنام هادئًا، فالأرق قاتل.. والنوم ينعش ويجدد حيويتك.. وعدد الساعات لا يهم.. ولكن عمق النوم هو الذي يهم كثيرًا جدًا!

اضحك ما استطعت حتى في مواجهة الموت!

نوع من الهرب يريح الأعصاب ويجعلنا قادرين على الاستمرار بعد ذلك.

ففي أيام الامتحان يجد الإنسان متعة في النوم وفي الذهاب إلى السينما والمشي في الحدائق وفي الشوارع.. مع أنه في حاجة إلى كل دقيقة.. وسبب ذلك: التعب، فهو الذي يجعلنا نهرب من مواجهة هذه المواقف المؤلمة، والنوم هو جنة الهاربين!

ونحن نستغرب كيف أن بعض الناس يحلو لهم اللعب والمرح في المقابر.. مع أن المرح لا يليق بجلال الموت. ولكن الموت ليس له جلال عند الذين يسكنون في المقابر، ولا عند الذين اعتادوا على سماعه وعلى توقعه.. ولذلك يواجه الناس هذا الموقف المفزع بالانشغال عنه بأي شيء آخر.. هذا الانشغال هو الذي ينقذنا من الهم والغم.. فما دام الموت لكل الناس فلماذا نخاف منه؟ أو لماذا نحزن على الذين راحوا.. ما دمنا سنروح أيضًا؟!

وأيام صلب المسيح جلس الرومان يشربون ويلعبون دون أن تهزهم صور المصلوبين حولهم.. دون أن يهزهم الموت.. أو دون أن توجعهم صرخات المصلوبين.. فهؤلاء الجنود أيضًا عليهم أن

يواصلوا حياتهم.. ولا داعي لأن يختصروا من حياتهم ويضيفوا إلى حياة الآخرين!

ورواد الفضاء في رحلاتهم الشاقة الانتحارية يداعبون رجال المراقبة، ويداعبون أنفسهم.. وهذا ضروري لكي يخف توترهم العصبي ولكي يشعروا أنهم ليسوا وحدهم في الفضاء، وكثيرًا ما طلبوا إلى رواد الفضاء أن يقوموا بألعاب وحيل لكي يتفرج عليها أطفال العالم.. والهدف طبعًا هو أن يواجهوا الموت بالضحك أي الحرص على الحياة والأحياء!!

ومن عادات الإنجليز في لندن إذا ما أصبح الضباب كثيفًا لا يرى الناس فيه بعضهم بعضًا أن تطلب إدارة المرور إلى كل الناس أن يغنوا.. أو يمسكوا في أيديهم راديوهات صغيرة.. المهم أن يصدر عنهم أي صوت حتى لا يصطدم بهم أحد من الناس، أو من السيارات!

ففي مواجهة الخطر والألم والتعب يجب أن يفعل الإنسان شيئًا مرحًا أو مضحكًا حتى لا يسقط من التعب أو الخوف.. وفي مواجهة الموت يزداد حرص الناس على التمسك بالحياة، بحياتهم هم. فالموت ليس مرضًا معديًا. وإن كان يجيء بلا مرض وبلا موعد وبلا تفرقة في السن والدين واللون والطبقة.. وكلما اقترب الإنسان من المرض، كان أحرص على الصحة. وكلما اقترب إلى الموت كان أكثر تمسكًا بالحياة.. إنها لحكمة بليغة: أن تستمر الحياة ضاحكة في قلب الحزن، وأن تعيش متدفقة بين الموتى!

أصبحت الجريمة طعامًا يوميًا!

صحيح أن أول جريمة في التاريخ ارتكبها واحد ضد أخيه.. ولم يكن السبب أنهما رأيا فيلمًا تلفزيونيًا عنيفًا.. وإنما الحقد من طبيعة الإنسان والرغبة في قتل النفس أو الغير.. حدث وسوف يحدث إلى أن يبقي اثنان على الأرض.. سوف يقتل أحدهما الآخر، والثاني عندما يجد نفسه وحيدًا سوف ينتحر!!

ولكن إذا اعتاد الإنسان – الطفل مثلاً– أن يرى العنف في الأفلام بالألوان البديعة، فإنه يري الدم في أجمل صورة، والجريمة في أروع إطار.. فبدلاً من أن يحب الإطار فإنه يدمن الصورة!

وإذا تشابهت أفلام العنف مع صورة الحروب الحقيقية.. فإنه لا يستطيع أن يفرق بين الأفلام عن الحرب وأفلام الحرب نفسها. ولكنه قد اعتاد على ذلك.. ولهذا السبب لا يكون العنف كريهًا ولا يكون الدم مخيفًا.. فإذا مات واحد أو ألف واحد، فهذا شيء عادي.. وهو أيضًا شيء فظيع. فلم نعد ننفر من القتل والمعارك والدماء.. وهذه هي شكوى الآباء والمربين في كل الدنيا..

وإذا اتجهت أصابع الاتهام إلى الشاشة الصغيرة والكبيرة والصحف، فليس ذلك خطأ، فنحن نساهم بالكثير في إعداد القراء

والمشاهدين إلى الجرائم بكل أنواعها وإن لم نقصد ذلك، ولكن نحن يسرنا عليهم ذلك. فإذا ارتكبوا الجرائم، فلا نحن مندهشون ولا هم منزعجون!!

وقد قرأنا كيف أن طفلاً قتل طفلاً على مشهد من طفل آخر بلا خوف، وكيف وقف الطفل أمام القاضي يقول إنه لا يعرف معنى أن يموت أي إنسان.. ولا ما الذي جعله يموت إذا خنقه أو إذا ضربه على رأسه ثم وضعه على شريط القطار!!

وبريطانيا والعالم كله قد ارتجف من رجل مجنون دخل أحد فصول المدرسة وأطلق النار على عشرات الأطفال فقتلهم جميعًا.. وانتحر..

فما المعنى؟

لا معنى إلا أن هذا رجل مجنون.. ولكنه ليس المجنون الوحيد ولن يكون آخر المجانين الذين يدفعهم الاضطراب النفسي والعقلي إلى اغتيال الأبرياء.. فالكبار يفعلون ذلك أيضًا في كل الدنيا..

وقد أعلنت محال لعب الأطفال الكبرى في بريطانيا الحداد على هؤلاء الأطفال بسحب كل لعب الأطفال العنيفة.. البنادق والمسدسات والدبابات مؤقتًا أو نهائيًا؟ ولم تنته مناقشات أصحاب مصانع لعب الأطفال إلى قرار حتى الآن!

هؤلاء الشبان الساخطون الغاضبون الأبرياء!

أذكر أن الدنيا انقلبت لأن الشبان الأمريكان - الهيبز- قتلوا الممثلة شارون تيت في بيتها، ولم تكن هذه جريمتهم الوحيدة، فقد ارتكبوا عدة جرائم أخرى. والناس لم يتهموا الشبان بأنهم مجرمون.. دائمًا اتهموا هذا الأسلوب الشاذ في حياتهم بأنه هو المسئول عن هذه الجريمة وغيرها!

وهذا ظلم للشبان، فليسوا هم أول من ارتكبوا جريمة في أمريكا أو في العالم.. فالأمريكان يرتكبون جرائم أبشع من ذلك، من دون أن يكونوا من طائفة الهيبز.. ومن دون أن يكون ذلك تحت تأثير الحشيش أو الأفيون أو عقار الهلوسة، إنهم ارتكبوا جرائم في النهار وبعقل وبتخطيط!

وقد عرفنا في الشرق الأوسط مثل هذه الجرائم التي ارتكبها الهيبز، وكان ذلك في القرن الحادي عشر والثاني عشر: الحشاشون في إيران ولبنان وسوريا ومصر بزعامة الحسن بن الصباح.. وعرفنا إخلاص الألوف لهذا الرجل وكيف أن هناك شيخًا آخر اسمه: شيخ الجبل، وهو الذي يتحكم فيهم، ويأمرهم بارتكاب الجرائم ضد الساسة وضد التجار والمواطنين الطيبين.. وكيف أن «شيخ الجبل» أو شيخ

القبيلة يكافئ هؤلاء الحشاشين بأن يدخلهم في إحدى القلاع ويقدم لهم الحشيش ويحدثهم عن الجنة، ويرون أشباح الجنة، ويخرجون للناس يؤكدون أنهم ذهبوا إلى الجنة، وأن الجنة مفتوحة لكل من ينفذ تعاليم شيخ الجبل، وكل تعليماته اغتيالات وتفجير الدماء في بطون ورءوس الناس؟!

إن الهيبز أحسن وأشرف؛ لأن هؤلاء الشبان يعانون أزمات عنيفة وقلقًا محترمًا؛ إنهم ساخطون على المجتمع الأمريكي، ساخطون على الوحشية، وعلى المجتمع الصناعي الميكانيكي الذي لا يخدم الإنسانية، ولا يخدم الشباب.. ولذلك قرروا الانسحاب منه والانعزال والانطواء.. وتعطيل قواهم الشابة.. وهذا التعطيل نوع من التخريب لهذه الآلة الوحشية التي تصنع الدمار الحديث وتطبقه على ملايين الأبرياء في كل مكان من العالم.. فتدوس الزنوج، وتنشره على ملايين الجياع من البيض والسود.. ثم تدفن هذا كله في أفلام الدعاية الأنيقة الملونة والإعلانات الفخمة.

ولا توجد في الدنيا جريمة أبشع وأحط من هذا العملاق الصناعي المفترس لكل ما هو إنساني وكل ما هو أخلاقي.. فإذا احتج هؤلاء الشبان وصرخوا ومزقوا غيرهم.. ومزقوا أنفسهم أكثر وأعنف.. فهم معذورون.. وسخطهم كريم، وغضبهم نبيل!

القضية: لماذا هذا الإسراف في كل شيء؟

لكي تحكم على ظاهرة بأنها سيئة أو جيدة يجب أن تفهمها. ويكون الفهم مثل حيثيات الحكم في أية قضية.. وبعد ذلك تجيء المرافعة، أي المناقشة العلنية للخطأ والصواب. والمرافعة نوع من التفسير والتبرير والتنوير حتى إذا جاء حكم القاضي بعد ذلك، كان على أساس من الفهم العام لوجهات نظر كثيرة..

ونحن جميعًا قضاة ومحامون ومتهمون وأبرياء ومجرمون. إننا نحن المحكمة بكل أركانها.. من القاضي حتى منادي المحكمة.. أما القضية المعروضة فهي لماذا هذا الإسراف في التدين.. وفي الجنس.. وفي تعاطي المخدرات في العالم كله؟! لماذا إيمان شديد وجنس عنيف وحشيش وحقن وهلوسة في معظم عواصم الدنيا؟! لابد أن تكون هناك أسباب عامة واحدة، هذه الأسباب هي أن العالم كله في حالة حرب.. أو في حالة خوف من وقوع حرب شاملة، ولذلك فالاستعداد للحرب أو لمنع وقوع الحرب على أشده في الغرب والشرق.. والذين ليسوا في حالة حرب يستنكرون الحرب، ويلعنون الدول التي تدفع الإنسان إلى الموت.

وفي مواجهة الخوف من الموت ما الذي يفعله الإنسان؟

إنــه يـواجــه الموت، إذا اسـتـطـاع، قـاتـلاً أو قـتـيـلاً.. بـأن يـتـمسك بـالحياة، ولذلك فنسبة الزواج ترتفع في ظروف الحرب. فـالإنسان خوفًا من الموت، يريد أن يخطف الحياة قبل أن يخطفه الموت من الحياة.. وكان الشاعر الروسي يفتشنكو يحدثنا عن أنهم يوقظونه وهو طفل صغير ليرقص ويغني للجنود المسافرين إلى الجبهة، فقد كان الجنود يتزوجون قبل سفرهم بساعات.. والإقبال على الحياة بالإسراف في كل ما هو ضروري لذيذ وبصورة عصبية. والجنس أعـمـق وأعـنـف هـذه الصـور. فـالمجلات عـاريـة والأفـلام والأغـاني والاستغراق في الجنس هو نوع من سد الأذن والعين عن الخطر الذي هـو الموت. فـالجنس أسـلـوب مـن أسـالـيب الـنسيـان.. أو الـهرب من مواجهة موقف أليم..

وكـذلك المخدرات. إنـهـا وسيـلـة لخلق «جـنـة زائـفـة» يـعيش فـيـهـا الإنسـان سـاعـة أو يـومًـا أوعـمـرًا بـعـيـدًا عـن الحرب وويـلات الحرب والخوف منها. فالمخدرات نوع من «السلام المزيف» في مواجهة «الحرب الحقيقية»!!

وأما الاتجاه إلى الدين.. فهو نوع من الحب إلى الله.. كطفل يتعلق بملابس أبيه. ويرمي نفسه على صدر أمه لعله يجد الراحة.. ويجد الملجأ الحصين.. ثم إننا كالأطفال أيضًا.. نلقي بهمومنا على السماء ونطلب إليها أن تحل مشاكلنا نحن البشر..

إنه – إذن – الخوف الذي يُلقي بنا ويطوحنا لعلنا ننسى.. ننسى أن هناك مشكلة. وأن للمشكلة حلاً.. ونحن في حاجة إلى الفهم في جميع الأحوال حتى لا نتهم أنفسنا دائمًا!

سيد درويش في كل مكان!

سيد درويش الموسيقار المصري الكبير، مات عن 30 عامًا.. ولو عاش 30 قرنًا فإنه لن يتقاضى ما يتقاضاه مايكل جاكسون عن أغنية واحدة! فعلي أيام سيد درويش كانت الأغنية بجنيهين وأحيانًا بخمسة.. وكان الناس يحسدونه على ذلك ويسألونه: أين تنفق كل هذه الأموال يا شيخ سيد؟ سألت المطربة المصرية الإيطالية داليدا، في أول حياتها الفنية.. منتهى أملك ماذا؟ قالت: مائة جنيه في الشهر! ياه! كثير؟! طبعًا هذا مبلغ كبير فمن الذي يعطيه لك؟ فقالت بغضب: وانت مالك يا أخي، أي واحد مغفل.. أو أي واحد يسمع صوتي فيقول: الله يا داليدا..

وعاشت داليدا، وأنهت حياتها بطريقتها. فقد كانت حياتها تعيسة.. وعندما أفهمتها بأن طموحها وما تفكر فيه مستحيل تحقيقه وهي صغيرة – في سنة 1960 – تضايقت مني جدًّا وغضبت. وحاولت أن أقنعها بأنني أداعبها، ولكنها لم تغفر لي ذلك، ولم أكن أداعبها، وإنما رأيت في سلوكها وتعلقها بكل الشخصيات المستحيلة والعذاب بسبب ذلك، أنها تحاول أن تجعل من المستحيل ممكنًا.. فإذا لم يتحقق ظلت تندب حظها.. وأحبت وأحبت.. وأعطت وأعطت حتى

أضاعت الملايين التي كسبتها على أناس لا يساوون وزنهم ترابًا.. لقد كان من آمالها مائة جنيه. فكسبت مائة مليون.. ثم قابلتها قبل وفاتها، وسألتها: ما أخبار المائة جنيه؟!

ياه.. إنت لسه فاكر! يا ليتني لم أكسب مائة مليون.. فأنا تعيسة بهذه الملايين.. ولم أكن سعيدة بعشرات الجنيهات. يعني إيه؟!

كأنني لا كسبت ولا عشت.. كأنني سيد درويش قصير العمر رقيق الحال.. موهبة ولدت لتموت.. وتعيش في الناس بعد أن ذهبت هي إلى غير رجعة! وفي كتاب صدر عن الموسيقار النمساوي «فرانتس شوبرت» الذي توفي في عمر سيد درويش، أنه لحن 600 أغنية من بينها 144 أغنية في سنة واحدة.. ثم كتب عشرين مقطوعة موسيقية للبيانو، وتسع سيمفونيات و 19 رباعية، وعشرين سوناتا، وعشر أوبرات.. كل ذلك في هذا العمر القصير جدًا.. فما الذي كسبه هذا الشاب العبقري؟! وكيف عاش؟ وكيف مات؟ وكيف طارده الدائنون؛ وماذا قال؟ وبماذا وعد؟ كل الذي كسبه هذا الموسيقار العبقري في كل حياته يعادل بالضبط سطرًا واحدًا في أغنية لمايكل جاكسون.. ومن ضمن الأوراق التي عثروا عليها للموسيقار شوبرت خطاب بعث به إلى صديق يرجوه أن يذهب بنفسه إلى أحد متعهدي الحفلات، ويكلمه برفق عن أخلاقيات شوبرت وأنه صادق الوعد وأنه لم يكذب في حياته.. وأنه ما دام قد وعد بأن يعيد إليه القرض، سوف يفعل ذلك في أقرب وقت..

أما المبلغ المطلوب سداده، والذي احتاج منه إلى هذه الرسالة الرقيقة وهذا الرجاء والإلحاح منه، فهو ما يعادل نصف دولار!

اجتهادات جغرافية في تفسير التاريخ!

عندك فكرة.. متى كان سيدنا يوسف عليه السلام في مصر؟

بالضبط لا أحد يعرف.. ولكن العلماء لهم اجتهادات جيولوجية وطبية.. فمن بين الاجتهادات الجيولوجية أن البركان الذي انفجر فجأة في جزيرة سانتوريني اليونانية سنة 1628 قبل الميلاد، من الممكن أن يدلنا على ذلك. فكمية الحمم التي خرجت من هذا البركان تساوي التراب الذي أخرجه المصريون من حفر قناة السويس عشرة آلاف مرة.. وقد أدى هذا الانفجار المروع إلى انتشار سحب الكبريت في السماء على ارتفاع 200 متر، فغطى ما بين تركيا ودلتا مصر.

وأدى ذلك إلى الجفاف وإلى البرودة الشديدة، كما حدث في الكويت عندما امتلأت سماؤها بدخان البترول الذي حجز عنها الشمس، فماتت النباتات وجاع الناس في العصور القديمة.

قبل ذلك بقليل تنبأ يوسف عليه السلام لملك مصر بأن سنوات من الجفاف والجوع سوف تسود مصر.. ولذلك نصح الملك بأن يقيم صوامع الغلال حتى لا يجوع الناس في سنوات الجفاف.. وفي هذه السنوات جاء إخوة يوسف إلى مصر.. ومعنى ذلك أن يوسف عليه السلام ربما عاش في ما بين 1900 قبل الميلاد و 1350 قبل الميلاد،

في عصر الملك خبان أقوى ملوك الهكسوس، ولذلك اتسع نفوذه من تكريت حتى بغداد، ويمكن رصد بعض الأحداث المهمة عند الفراعنة واليهود، فخروج موسى عليه السلام من مصر ومعه اليهود كان عام 1280 قبل الميلاد.. أي في نفس الوقت الذي أقام فيه رمسيس الثاني معبد أبي سمبل.

وعندما أقام الفراعنة الأهرامات سنة 2500 قبل الميلاد خرج أبونا إبراهيم عليه السلام من العراق مهاجرًا إلى أرض كنعان.

وفي 960 قبل الميلاد أقام سيدنا سليمان الهيكل في أورشليم.. وتزوج من بنات فرعون، وأقام لهن قصرًا بعيدًا عن بقية زوجاته التي تقول التوراة إنهن قد بلغن ألف امرأة؟!

وهناك نظرية تقول إن ظهور الأطباق الطائرة كان على أيام موسي عليه السلام، وأن اليهود قد رأوا أجسامًا مضيئة في سماء سيناء.. وأن مثل هذه الأشياء قد شوهدت أيضًا في أماكن مختلفة من العالم، كما أن كتب الهند القديمة والنقوش في الكهوف الإفريقية تسجل ذلك في الوقت نفسه.

وبالدراسة الحديثة يقال إن خروج اليهود من مصر كان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.. يجوز.. فكلها اجتهادات في الجغرافيا لتفسير التاريخ!

أنت تسأل وأنا حر في الإجابة!

سألني مذيع إحدى المحطات العالمية: هذه أسئلة شخصية.. وأنت حر في أن تجيب عنها أو لا تفعل. فأنا أتحدث إلى الشخص والإنسان الذي هو أنت.. دون أن أتعرض لصفاتك الأخرى. قلت: أوافق على هذه الشروط.

سؤال: ما رأيك في تنظيم النسل؟ جواب: أنا لا أوافق عليه.. فكل إنسان حر في أن يكون له ما يشاء من الأطفال.. إنه حر في أن يحمل وزر الأطفال ما دام قد اختار أن يكون زوجًا.. فإذا كان الزواج جريمة، فالأطفال أكبر عقوبة.. وكل إنسان حر في أن يختار السجن والعقوبة التي يريدها..

سؤال: ولكن هذا ضد سياسة الدولة.. أو ضد سياسة دول العالم كله؟!

قلت: ضد الدولة؟ فليكن. فهذا رأيي.. ثم إن هناك دولاً تغري الناس بأن يتزوجوا وأن يكون لهم أولاد أكثر. فهم لا يتزايدون أو يهددون بزحف الأجانب عليهم.. وفي بلادي ينظر الفلاح والعامل إلى أولاده على أنهم «أدوات إنتاج».. مثل الفأس والمنشار.. فالعامل والفلاح يتقاضيان أجرًا عاليًا.. فالأولاد مصدر رزق.. ولا يزال الفلاح يحزن

لموت الجاموسة أكثر مما يحزنه أن يموت ابنه.. فهو قادر على أن يأتي بولد جديد، وليس قادرًا على أن يأتي بجاموسة كل تسعة أشهر!!

سؤال : وهل من رأيك تعدد الزوجات؟

جواب: إذا كان من رأيي أن يأتي الإنسان بأي عدد من الأطفال، فلا يهم إن كان ذلك من زوجة واحدة أو أكثر.. إنه حر!

سؤال : ألا ترى أنك تتمسك بمبادئ قديمة بالية.. وأن العالم كله ضد كثرة الأطفال وضد تعدد الزوجات؟ جواب: أنت قلت إنك تسألني بصفتي الشخصية.. هذا هو رأيي الشخصي.. ولكي أكون أكثر وضوحًا فإنني مدين بوجودي إلى عدم تحديد النسل.

سؤال: بصفتك الشخصية أيضًا هل ترى أن الحب شرط الزواج أم أن الزواج هو شرط الحب؟ جواب: لا يهم أن يجيء الحب.. ولا يهم كيف يكون ترتيب الزواج.. فأنت عندما تريد أن تشتري شيئًا.. فليس في كل الأحوال قد قررت أن تشتري هذا الشيء بالذات.. وكذلك الزواج قبل الحب، أو أنه الحب قبل الزواج.. فالرجل عادة يتساءل: كيف تزوج هذه الفتاة بالذات؟! والمرأة تتساءل: كيف أحبت هذا الفتى بالذات؟!

سؤال: هل لديك أقوال أخرى؟ الجواب : طبعًا.. سؤال: هل تريد أن تضيف شيئًا إلى الذي قلت.. أو هل لديك رغبة في تعديله أو العدول عنه؟ جواب: عندي كل ذلك.. فالمعنى الواحد من الممكن.. من الواجب أحيانًا أن أقوله بألف شكل.

سؤال : إذن؟ جواب: إذن لو أرسلت لي والدك أو والدتك.. أو رئيسك لكان كلامي مختلفًا.. نفس المعاني ولكن في أوعية لفظية أخرى.

سؤال: أخيرًا.. إذن ما هو الحب؟ جواب: هو أن تنشغل بشخص يعجبك! سؤال: والكراهية؟ جواب: أن تنشغل بشخص لا يعجبك.. ولذلك فالحب والكراهية متشابهان.. فكلاهما انشغال بشخص آخر.. ولذلك كان من السهل أن يتحول الحب إلى كراهية والكراهية إلى حب.. والمثل الذي يقول: لا محبة إلا بعد عداوة. صحيح.. وصحيح أيضًا المثل الذي يقول: ولا عداوة إلا بعد محبة أيضًا!

هذه العبقريات ليست لها مقدمات!

نحن لا نعرف ما هي المقدمات التي تأتي بإنسان موهوب. ليس من الضروري أن يكون أبواه كذلك، ولا من الضروري أن تكون بيئته ثقافية فنية، ولا من الضروري أن ينتبه أحد إلى وجوده وهو صغير.. فيرعاه حتى يكون نجمًا في زمانه. فالموهبة ليست وراثية، ولا هي معادلة كيماوية، ولا هي الحرية في التربية ووفرة الكتب والطعام والشراب والمتعة بين يدي أي إنسان.. ونحن لا نعرف ما الذي عمله آباء أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء وهوميروس وشكسبير وجيته وهوجو وغيرهم.. ولا نعرف من أين جاءت عبقرية دافنشي وأينشتين وبتهوفن وماركوني. ولكننا نعرف شيئًا واحدًا: كما أن في السماء نجومًا تتألق أبدًا، فعلى الأرض مصابيح لا تنطفئ، هم الأنبياء والرسل والمصلحون وعباقرة الأدب والفن والفلسفة والعلم.. قد يتكاثرون جدًا في عصر، وينقرضون في عصر آخر.. لا قاعدة، فعصر هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ليس له نظير في الحضارة الإنسانية. لماذا؟ لا سبب!

وفي كل الحضارات عصور مشرقة بأبنائها، باهرة بعباقرتها، وعصور أخرى مثل الخريف والشيخوخة، قد خمدت فيها النار،

وانطفأت الأنوار. ولكن كما تجيء السحب فتحجب عنا السماء وشمسها وقمرها ونجومها، كذلك تجيء عصور على الإنسانية أشد سوادًا من السحاب، ويكون هذا السواد سقفًا قد سقط فوق العقل الإنساني، ويباعد بينه وبين إشراقات السماء ومصادر النور والإبداع. وقد حاولت الإنسانية أن تجد سبيلاً إلى البحث عن الموهوب. أي الذهاب إليه، حتى توفر عليه مشقة الطريق وتنجيه من عقبات الإنسان. وحاولت أن تتيح الفرص المتساوية لكل الناس، ويكون ذلك نوعًا من العدل أمام الجميع.

ولكن الموهبة تجيء من ناحية أخرى، فليس من الضروري أن يكون الموهوب ناجحًا في كل عمل وعلم.. وليس من الضروري أن يكون ألمع الناس ولا حتى أذكاهم.. فقدراتهم كنوز مخبوءة، لا أحد يعرف متى تظهر.. كأنها مناجم الذهب في الأرض.. نمشي فوقها بدون أن ندري.. كأنها آبار البترول أنهار وبحيرات تجري بعيدًا في جوف الأرض.. كأنها البراكين تحتشد عامًا بعد عام، وفجأة تنفجر وتلفت بدخانها ونارها عيون السماء. وقد تتوهج الموهبة في وقت قصير، وتنطفئ بسرعة، كما ظهرت بسرعة.. فقد عرفنا شعراء ماتوا في الثلاثين أو بعدها بقليل، وعباقرة ماتوا في السبعين والثمانين، ولكن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الموهبة، كان ذلك لحكمة. فهو لم يخلقها عبثًا. وإنما لتبقى للناس وتضيء للناس. تمامًا كما أرسل الأنبياء والرسل.

ولذلك فلا تختفي الموهبة، وإذا ظهرت لا يستطيع أحد أن يتجاهلها.. قد يظلمها، قد يقسو عليها. قد يحاربها، ولكنها سوف

تبقى دليلاً على حكمة الله، وحماقة الإنسان. وقد يلقى الموهوب ما يشجعه من الشهرة والمجد، وقد لا يجد ذلك.. فالموهبة سلعة تحتاج إلى من يعرضها وينادي عليها.. ويبيعها ويلم الناس حولها. بعض الموهوبين أساتذة في البيع والشراء، وبعضهم يفضل أن يبقى في مكانه.

العجول والعقول مشكلة!

المثل الشعبي يقول: باب النجار مخلوع!

أي أن الرجل الذي يصلح أبواب الآخرين، ينسى أن يصلح بابه. ويكون معنى ذلك أن الذي يطالب الآخرين بأن يصلحوا أبوابهم، يجب أن يلتفت إلى بابه أولاً. أو يكون المعنى أنه حتى النجار من الممكن أن تجد لديه بابًا مخلوعًا أو شباكًا مكسورًا. فلا أحد بلا عيب.

ومعناه أيضًا أن الإنسان يفتح عينه على غيره، أكثر مما يفتحها على نفسه، ولذلك فالطبيب يشكو من التعب، وهو الذي يحاول أن يريح الآخرين، وتجد الناجح في عمله فاشلاً في بيته.

والشمس التي هي مصدر الحياة، ليست بها حياة. ولكن هناك معنى آخر وهو أن العباقرة الذين يشغلون أنفسهم بالقضايا الكبرى، يقفون عاجزين أمام المشاكل الصغرى.

ويقال إن العبقري الإنجليزي نيوتن، وهو الذي اكتشف قوانين الجاذبية وغيرها من النظريات التي زلزلت الفكر الإنساني كان يمكث وقتًا طويلاً في معمله. وكان كلبه يدق الباب برجليه يريد أن يدخل؛ فبدلاً من أن يترك له نيوتن الباب مفتوحًا، اهتدى إلى عمل فتحة في الحائط لكي يخرج منها الكلب ويدخل دون أن يشغله في عمله.

ثم ظهرت عنده مشكلة أخرى فقد اشترى كلبًا صغيرًا. وأمضى ليلة يفكر في مشكلة هذا الكلب الجديد. فما كان منه إلا أن فتح في الحائط فتحة صغيرة للكلب الصغير ونسي أن الكلب الصغير من الممكن أن يدخل من الفتحة الكبيرة!

وفي ذلك الوقت كان مشغولاً بالعلاقة التي تربط القمر بالأرض والأرض بالشمس، والمجموعة الشمسية بالمجرة، والمجرات كلها بمركز الكون بالله. والشاعر الأمريكي إمرسون كانت لديه مزرعة لتربية الأبقار. وكان يحب أن يراها ويطعمها. وفي يوم رأى أن يخرج من الحظيرة أحد العجول. فراح يدفعه أمامه.. ولم يفلح، حاول أن يشده بالحبال، ولكن العجل تشبث بالأرض، حاول أن يغريه بالطعام يضعه أمام الباب. وأخيرًا استدعى واحدًا من أبنائه؛ هذا يشده من الأمام، وذاك يدفعه من الخلف. ولم يخرج العجل، فذهب إمرسون إلى مكتبته ونظر إلى الكتب بالألوف حوله وقال: كل هذه الكتب لم تساعدني على أن أقنع عجلاً بالخروج من الحظيرة!

وكتب في ورقة أمامه: نحن مشغولون بحل العقد بين الناس، وبين الناس والحيوانات.. ولكن لم يدلنا أحد كيف نجعل عجلاً صغيرًا يقطع بضعة أمتار، إذا كان لا يريد ذلك!

ثم استدعى الخادمة.. ودخلت الخادمة ووضعت إصبعها في فم العجل الصغير الذي راح يرضعها. ثم خرج من الحظيرة. وانحنى الكاتب إمرسون أمام الخادمة قائلاً: سيدتي أنت أحكم وأعظم!

جاءوا وعادوا وكانت لهم حكايات!

ما الذي يراه السائح في مصر؟

يرى كثيرًا جدًا، ولا نعرف منه إلا القليل.

فتاة عمرها 24 سنة جاءت من لندن إلى القاهرة.. ونشرت قصتها تقول إنها جاءت وحدها إلى مصر، واندهش الناس لذلك. ولكنها لم تشعر بأي حرج، كانت تمشي في شوارع القاهرة فلا يضايقها أحد.. فهي ترتدي الميني جيب ومثلها كثيرات.. فقط أصحاب المحلات هم الذين يضايقونها وخصوصًا إذا سارت في الأحياء الشعبية!

وقد لاحظت الفتاة أن عددًا كبيرًا من المصريين يرتدون ملابس من محلات «ماركس واسبنسر» في لندن. وتساءلت إن كانوا يتقاضون مكافأة مالية عن هذا الإعلان المجاني.

ولكن عندما ذهبت الفتاة إلى أسوان كانت العيون تأكل ساقيها، وقد استدعاها أحد المواطنين إلى أن تصعد فوق الفندق لترى أسوان بشكل أوضح، وعرفت أنه يريد أن يعرضها للهواء.. ويقوم الهواء بما تعجز يداه عن فعله.. وارتفع الفستان والتصق. وتقول إنه حاول برفق أن يقنعها بأن تصعد أحد السلالم لترى خزان المياه.. ولكن الفتاة اكتفت بما فعله الهواء!

وشـهـدت الـفـتـاة حـفـلـة راقصـة. وكـانـت الـراقـصـة تـرتـدي فسـتـانًـا كـاملاً، وأحست الفتـاة بـأن الفسـتـان الطويل مثير مثل الفستـان القصير، وأن الاهـتزاز والالتواء والحركات المليئة بـالوعد هـي التي تثير أكثر وأكثر.

وقـالت فتاة فرنسية جاءت إلى مصر وحدهـا إنهـا لم تشعر بـأنـهـا غريبة عن مصر، فأكثر النـاس يتكلمون الفرنسية.. وإنها عندما ذهبت إلى نـادي الجزيرة، أحست بـأنـهـا في بـاريس أو في جنوب فرنسا. وإنهـا اندهشت جدًّا عندمـا كـان النـاس يحدثونهـا بـالعربيـة.. ولكن عندمـا يعرفون أنهـا فرنسيـة يحدثونهـا بـالفرنسية معتذرين.

ولم تشعر بحرج إلا مرة واحدة، عندمـا احتـاجت إلى أن تريح سـاقيهـا فوضعت سـاقًـا على سـاق على أحد المقـاعد وانشغلت بـالقراءة.. فجاء أحد الجرسونـات ونبههـا برفق إلى أن تتغطى!

وقـالت سـائحة إسبانية جاءت بمفردهـا إلى القـاهرة إن القـاهرة مدينة جميلة في الليل وإنهـا لم تجد أية مضـايقـات من الشبـاب في أي مكـان ذهبت إليه، ولكن فوجئت في آخر أيـام زيـارتـهـا لمصر أن أحد المرافقين المصريين يعرض عليهـا الزواج، وقبل أن تسـألـه عن الذي يعرفه عنهـا قـال إنـه راقبهـا جيدًا، وأعجب بهـا؛ لأنـهـا لا تدخن ولا تشرب ولا ترقص وتنـام مبكرًا.. وضحكت الإسبـانيـة من كل قلبـهـا؛ فقد كانت مريضة، وجاءت إلى مصر للاستشفـاء فقط!

لساني عليه وقلبي معه!

يقول أمير الشعراء شوقي في معنى «التقية».. أي عندما يجد الإنسان نفسه مضطرًا أن يقول ما لا يؤمن به، حماية للذي يؤمن به.. عندما يكون الإنسان مضطرًا إلى التخفي.. فيتظاهر بالكفر خوفًا على إيمانه، وبأنه لا يصلي ولا يصوم عندما يكون ذلك خروجًا ومروقًا كما حدث للمسلمين في مكة أيام كان الإسلام غريبًا، وهم بذلك شديدو الخوف على دينهم وقرآنهم ورسولهم. يقول شوقي مشيرًا إلى خوف الناس من مشايعة الحسين بن علي رضي الله عنهما:

أحب الحسين ولكنما ... لساني عليه وقلبي معه

إذا الفتنة اضطربت في البلاد ... ورمتَ النجاة فكن إمعه

أي كما نقول في لغتنا العامية: معاهم معاهم، عليهم عليهم.. وهذا ما تفعله كثير من الحيوانات والحشرات أيضًا؛ عندما تتخذ لون «البيئة» فلا يكون لها لون مميز فتدركها الحيوانات الأخرى المفترسة لها.. ولا نسمي ذلك نفاقًا وإنما نسميه التوافق مع البيئة حماية لها ووقاية من أعدائها. ولكن هو «النفاق» كما يسميه الشاعر بلدياتي محمد حمام، وكان ساخرًا جارحًا مضحكًا أيضًا.. وكان أكبر قهقهة عالية في ليالي القاهرة في زمانه.. فيقول:

ما دمت في عالم النفاق	*فاعدل بساقٍ وملْ بساقِ*
ولا تشاحن ولا تخاصم	*واستقبل الكل بالعناقِ*
ولا تحقق ولا تدقق	*وأنسب شآمًا إلى عراقِ*
وقل كلامًا بغير معنى	*واحلف على الإفك بالطلاق*
فأي شيء كأي شيء	*بلا اختلاف ولا اتفاقِ*
وأي شيء كأي شيء	*ما دمت في عالم النفاقِ!*

وعندما يكون أي شيء مثل أي شيء.. فلا شيء يهم أحدًا.. ولا شيء له معنى أو هدف أو قيمة.. أي عندما تفقد كل الأشياء ألوانها وأوزانها وكل الطرق أهدافها.. وكل المؤمنين يدورون حول أنفسهم لا يجدون القِبلة. ولا يرفعون أيديهم إلى السماء ولا يسجدون على الأرض. فقد انفتحت عليهم طاقات الأوزون، فالسماء سموم. والأرض كذب والناس خداع. وكلهم كاذبون يبشرون بإبليس وبطانته من الساسة والدجالين. هنا فقط يجب أن تهز كتفيك وتخرج لسانك لكل شيء.. فلا شيء يستحق أكثر!

ملايين مثل سيادة الوزير!

في البدء كانت الفضيحة.. كان الشعور بالفضيحة.. فقد كانت في الجنة شجرة محرمة، ولكن الشيطان ضحك على حواء التي ضحكت على آدم، فأكل الاثنان منها. وفجأة اكتشفا أنهما عاريان تمامًا.. فراح الاثنان يتغطيان بأوراق الشجر، وبسبب هذه المصيبة نزلا إلى الأرض؛ أي بعد أن افتضح أمرهما. وبعد أن ظهرا عاريين تمامًا كان لابد أن يخرجا من الجنة ويكفرا عن هذه الغلطة، هذه الخطيئة. وكانت حياتهما وحياتنا على هذه الأرض تكفيرًا وتطهيرًا واستمرارًا في الخطايا والتكفير عنها. وعندما قتل قابيل أخاه هابيل سئل: كيف حدث ذلك؟ قال ما معناه: وهل أنا حارس لأخي؟!

يعني: لا أعرف من الذي قتله! ولم يكن غيرهما في هذه الدنيا، فهو القاتل، وترك جثمان أخيه مكشوفًا، فجاء غراب ودفن غرابًا قد مات. وعرف هذا الأخ القاتل أنه أقل فهمًا من الغراب، وقبل ذلك عندما طلب الله إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، وكان كبير الملائكة، رفض لأنه مصنوع من النار، أشرف من التراب، ولكن فوجئ بأن آدم أهم عند الله من إبليس، وأن آدم له العقل والقلب وحب المعرفة والقدرة على التطوير والإبداع. وأهم من ذلك أنه ولد ليموت؛ فالحياة بلا موت قاسية.. فعندما يطول العمر وتكثر الأوجاع يتمنى الإنسان الموت؛ لأنه أرحم من الحياة.

وكان آلهة الإغريق يحسدون الإنسان؛ لأنه يموت، أما هم فلا يموتون.. فحياتهم مملة.. بل إن آلهة الإغريق كانوا يجعلون أنفسهم بشرًا؛ ليتمتعوا باللذات البشرية. فهم يحسدون الإنسان على أنه فان وليس خالدًا، والخلود حياة واحدة مملة. وشعر إبليس بأنه مفضوح.. بأنه جاهل.. بأنه مغرور، وأن آدم قد مسح به التراب الذي خرج منه.. وأنه رغم التراب أشرف عند الله.. وقد رأيت في فيلم «الكتاب المقدس» الذي كتبه الشاعر الإنجليزي «كريستوفر فراي» أن دم هابيل ابن آدم قد تسلل إلى مياه الأنهار ليشربه كل أولاد آدم بعد ذلك.. فتكون الخطيئة في دمهم.. فالإنسان مخطئ، وحياته خطيئة، ومحاولة هروبه من الخطيئة التي لها أول وليس لها آخر. ولولا فضيحتك أنت شخصيًا لكانت حياة جارك مملة.. فأنت متعته التي لا تنتهي. وقد تكون الفضيحة لحظة.. كأن يسقط منك بنطلونك في حفلة عامة!

ومن الممكن أن تكون فضيحة دولية.. فوزير الدفاع البريطاني «بروفومو» الذي يملك أسرار الحرب والسلاح والمخابرات، هذا الرجل كان عشيقًا لواحدة جميلة، هذه العشيقة كانت عشيقة للملحق العسكري الروسي.. فكانت أسرار بريطانيا في جيب الملحق العسكري.. فضيحة ما بعدها فضيحة.. وانكشف ضعف الرجل أمام الجنس، وضاعت أسرار بريطانيا بسبب ذلك!

إنها ليست فضيحة رجل ولا فضيحة وزير، ولكن عار دولة من أولها لآخرها.. وكارثة شعب استسلم لأحد رجاله وائتمنه على سر وجوده!

وغير «بروفومو» كثيرون جدًا في كل مكان!

سيادتك.. ماذا تشربين؟

كنا في مدينة مورمنسك في الدائرة القطبية الشمالية من روسيا.. درجة الحرارة 42 تحت الصفر. الأرض كلها جليد أبيض.. والتعليمات التي قيلت لنا قبل هبوط الطائرة: المرجو من السادة الركاب إذا نزلوا من الطائرة ألا يمسكوا أنوفهم أو آذانهم.. حتى إذا كانت قد تجمدت، فإن أي لمس لها يسقط كقطعة من الثلج.. الأفضل أن يضع كل واحد يده في جيبه ومهما شعر بأن أنفه يأكله.. أو أذنه فلا يخرج يده من جيبه!

ونزلنا من الطائرة.. وفي ركن من المطار الصغير جاءت جرسونة ضخمة ومعها ورقة ووقفت أمامي.. ونظرت لي ونظرت لها.. ولم تقل شيئًا، ولما لم أقل شيئًا اتجهت إلى واحد غيري.. ولما لم يقل شيئًا اتجهت إلى واحد ثالث.. ولما كنا جميعًا لا نعرف اللغة الروسية فلا هي سألت ولا نحن سألناها واتجهت إلى مكانها وراحت تشرب وتنظر إلينا بعينين زرقاوين لا معنى فيهما. وذهبت إليها وقلت لها بالألمانية: لا بد أنك تعرفين كم كلمة ألمانية.. قالت: نعم.. قلت: ماذا عندك من طعام لنا؟ اعتدلت وقالت: سيادتك تحب تأكل إيه؟ ماذا عندك؟ اطلب.. قلت: أنا نباتي.. قالت: عظيم جدًا.. قلت: ماذا عندك؟ قالت: سيادتك تحب تأكل إيه؟ قلت: خبز.. موجود.. جبن.. موجود.. زبدة.. موجودة.. سمك.. لا مش موجود.. خضراوات.. لا مش موجودة..

فاكهة.. مع الأسف لا وجود لها.. أرز.. يا ريت.. مكرونة.. اشمعنى!! خبز أسود، وأصفر وأبيض.. موجود.. وجبن.. جبن أبيض، وأصفر وأحمر وأخضر.. كل هذه أنواع من الجبن؟ نعم ولكن بكميات قليلة.. إذن ليس غداء ولا عشاء ولا إفطارًا!! لا.. أمال إيه ده.. تصبيرة.. وكيف نواجه البرد الشديد؟ هذه قصة أخرى.. عندك شاي؟ نعم.. إذن أريد شايًا ساخنًا ثقيلاً.. يعني إيه؟ أوتشي كريايكي «كلمتان روسيتان معناهما ثقيل جدًا».. دا. دا.. أوتشي كريايكي.. دا.. دا.. (أيوه.. أيوه).. وفتحت الدرج وأخرجت شنطة جلدية قديمة وحقيرة.. ومدت يدها إلى أعماقها وأخرجت كيس شاي.. وحاولت أن تفتحه فلم تستطع فوضعته في الماء المغلي..

وطلبت أن أشرب في كوب من الزجاج لأنني أحب أن أرى لون الشاي.. فأتت لي بكوب زجاجي غليظ وعلى الكوب آثار الزبدة أو أي شيء آخر.. وحاولت أن تغسل الكوب ثم قالت لي: طبعًا أنت تعرف أن الماء هنا قليل.. والناس يفضلونه للشرب وليس لغسل الأكواب.. وبعد ربع ساعة كان الماء قد برد.. أما لون الشاي فهو أصفر.. وهكذا ترى أن هذه هي الطريقة الوحيدة للاقتصاد في الماء وفي الشاي.. وسألتها: هل عندك قهوة؟ لا.. لا شيء غير هذا الشاي الأصفر.. هل أرجوك لآخر مرة أن تضعي كيسين من الشاي في كوب ماء مغلي.. نصف كوب.. ربع كوب.. لا.. لا يزال عندنا ماء.. ولكن المشكلة أن الشاي «عهدة» وسوف توقع على استلام هذا الكيس.. أما إذا أردت أن تحصل على كيسين فلابد أن يوقع اثنان آخران من المسافرين.. ممكن جدًا..

وكانت إذا ضحكت جلجلت.. وانفتح فمها وظهرت أسنانها المكسرة.. فوقفت أمامها وخلعت عنها (المريلة) التي ترتديها.. وارتديتها أنا وقلت لها : وسيادتك تحبي تشربي إيه؟!

من قال إنني فارس؟!

معقول أنت لا تعرف ركوب الخيل؟! والله لا أعرف. معقول واحد زيك تتكلم عن الخيول وتاريخها وأنواعها وملامح الجمال فيها.. معقول كل ده ولا يعرف يركبها؟! دي أبسط حاجة..

– صحيح أنها أبسط حاجة، ولكن هذه الحاجة البسيطة أنا لا أعرفها..

– بلاش تواضع..

– والله مش تواضع دي خيبة ثقيلة.. ففي استطاعتي أن أصف لك سفن الفضاء وأنا لم أركبها.. وأحدثك عن المريخ وأنا لم أذهب إلى هناك.. إنها معلومات من الكتب.. وأحدثك عن أعراض الموت وأنا لم أمت.. كلها معلومات..

– يعني لا تعرف كيف تركب حصانًا.. سؤال، ألم تركب حمارًا؟ ركبت. ألم تركب بسكليتًا؟ ركبت. ألم تركب دماغك؟ حصل.

وجاءت ساعة افتتاح المهرجان وجاء الفرسان، شبان صغار وشابات.. الواحد لا يزيد عن ستين كجم، ورشيق وخفيف وفارس المنظر والحركة.. وطلبوا مني أن أركب وراء الفارس الصغير وأتشبث

بملابسه.. هل هذا معقول؟ وأنقذني الصداع وظهور بعض قطرات العرق على وجهي واستنادي إلى واحد جالس إلى جواري.. وجاء التشخيص الطبي بأنني أُغمي على من الرعب والكسوف.. وكان قرار الطبيب أن يتركوني وحدي في الفندق.. وحدي أتفرج على السباق والمهرجان على الشاشة.. ودقَّ جرس التليفون: ألو.. أيوه أنا.. مش فاهم.. مش فاهم.. بكل سرور تفضل.. بعد ساعة. ووضعت سماعة التليفون. وبعد ساعة جاءني فارس صغير.. يبدو طفلاً ولكنه شاب في العشرين من عمره ومعه سرج حصان.. وقد عرض أمامي كيف يمكن ركوب الخيل والإمساك باللجام.. وكيف أتوازن على ظهر الحصان.. ولكن لماذا؟ لأنه لابد أن أتعلم ركوب الخيل.. لأن هذا عيب لا يمكن السكوت عنه.. وبعد ساعة انتقلت إلى أحد الاصطبلات الجميلة الأنيقة النظيفة.. وطلبوا مني أن أركب حصانًا واقفًا.. وأتوا بسُلَّم صغير وصعدت السلم وركبت على ظهر الحصان.. ولم يكد الحصان يتأكد من أن الفارس الذي على ظهره يعادل في وزنه اثنين من الفرسان الصغار.. وأن هذا شيء غريب شاذ.. فما كان من الحصان إلا أن ارتفع عن سطح الأرض لأجد نفسي في الهواء.. ثم أسقط على الأرض المغطاة بنشارة الخشب.. وكان من الضروري أن أنهض وأنفض نشارة الخشب عن ملابسي وأعود إلى الفندق لأكتشف بعض الجروح والرضوض في أماكن مختلفة من جسمي.. ووقفت أمام المرآة أرى هذه الجروح.. وارتديت ملابسي بسرعة وذهبت إلى أقرب مستشفى وطلبت كشفًا بالأشعة على كل عظامي.. وأدخلوني في أنبوبة كبيرة.. والأنبوبة باردة جدًّا وأنا عريان ملط.. وأجهزة لها أصوات غريبة تلتقط لي صورًا.. والأنبوبة تتقلب وأنا أدور معها..

أطلب أن أخرج ولكن لا أحد يسمعني.. وأغمض عيني.. وأحاول أن أفكر في أي شيء.. كل شيء مستحيل.. فأنا أرتجف من البرد.. ومن الغيظ.. ومن اليأس في أن أخرج من الأنبوبة.. ولا أعرف كيف أنقذني النوم.. ووجدتني عاريًا أمام الممرضات.. ووجدتني أدخل في ملابسي وأنا أرتعش وألعن كل الحيوانات ابتداء من الحمار وانتهاء بالحصان والإنسان.

الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب!

الناس نوعان: أناس عندهم حيوية وليست عندهم طاقة.. وأناس عندهم طاقة وليست عندهم حيوية. وأنا واحد من هؤلاء.. وأكثر الأدباء والشعراء والفنانين والفلاسفة والرهبان والصعاليك.. ففي استطاعتي أن أجلس إلى مكتبي عشر ساعات.. وعشرين ساعة.. من دون أن أحرك يدًا أو قدمًا.. وإنما فقط أقلب في الورق أو أستمع إلى الموسيقى.. أو أمد يدي إلى فنجان القهوة.. أو أتراجع في مقعدي وأنظر إلى السقف.. أو أنظر إلى نفسي.. إلى الذي في داخلي.. وقد أرى وقد لا أرى شيئًا.. فأنا وآخرون، هكذا نتحرك داخليًا ولفترات طويلة، من دون أن ننقل قدمًا عن قدم.. وكان الشاعر الإنجليزي والتر سكوت، يمضي يومه نائمًا تحت شجرة.. فإذا ضاق بالنوم على ظهره نام على أحد جانبيه يومًا كاملاً.. ويقول: ويجيء الشعر كنسيم الشمال!

وهناك حكمة إغريقية تقول: إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب. ولذلك يجب أن يركن الواحد إلى حائط أو إلى جبل أو إلى مكتب أو إلى وسادة.. سواء كانت هذه الوسادة مادية من القطن أو الحرير أو وسادة دينية أو سياسية أو فلسفية أو وهمية. وكان أستاذنا العظيم سقراط إذا أراد أن يتفلسف فإنه يجلس على سلالم أي معبد.. أو أمام أي بيت ويروح يضرب الفكرة بالفكرة.. ومن الشرر الذي

يتطاير ينير العقول ويضيء الطريق إلى معرفة الحقيقة.. ويقول إنه يمتهن نفس المهنة التي امتهنتها أمه.. فقد كانت «قابلة» أي مولدة.. وكان هو أيضًا يولد المعاني.. يولد عقول الرجال.. وكان يعتقد أن كل المعاني موجودة عند كل الناس.. ولكننا في حاجة إلى نبش العقول لكي نجدها وراء غشاوة الجهل..

أما الذين عندهم حيوية وليست عندهم طاقة، فهم الذين يتفجرون بالنشاط الحركي.. ينتقلون من مكان إلى مكان ومن قضية إلى أخرى ويعبرون عن ذلك بالكلمة.. بالخطابة.. بالموعظة.. بالمحادثات التليفونية ساعات وبالزيارات الاجتماعية.. أكثر رجال الإدارة وسيدات المجتمع ورجال السياسة من هذه النوعية.. ولذلك فأفكارهم تأتيهم أثناء الحركة.. والمثل الأعلى لهؤلاء كان نابليون. فهو يركب حصانه وينام على ظهره ويلتفت يمينًا يملي خطابًا ويسارًا يملي خطابًا آخر.. وينظر وراءه يطلب إلى مساعده أن يبحث له عن مكان هادئ.. كل ذلك في وقت واحد.. وأعظم إنجازات المرأة أن تلد طفلاً.. والمرأة لا تلد وهي تجري.. فالإبداع والخلق يحتاج إلى الدفء.. والدفء يحتاج إلى العش.. والعش لم يتم بناؤه إلا وفقًا لفكرة.. لحظة.. وبناء العش حركة وحيوية.. ولكن الخطة قد تمت بهدوء وتفكير وتدبير وبلا حركة. ولو أسلمنا أنفسنا لأصحاب الأفكار والأشعار ما قامت دولة ولا حضارة.. ولو تركنا أنفسنا للذين يجرون ويسارعون ويصارعون من دون أن يكون لهم هدف.. خطة.. برنامج.. فقط ينطلقون يمينًا وشمالاً – إيمانًا منهم بأن «الحركة بركة» –ما تقدمنا شبرًا واحدًا، فالحركة بلا هدف ضياع، والهدف بلا حركة وهم، والحضارة هي الزواج السعيد بين أصحاب الطاقة وأصحاب الحيوية، بين الشعراء والفلاسفة، أو بين المطربين والعلماء.

مات الفيلسوف ولم يعرف!

كان الفيلسوف الألماني العظيم نيتشه يقول: إن الإنسان يجب أن يعيش في خطر. ومات الفيلسوف وهو لا يعرف ما الذي فعلته فلسفته في هتلر. وكان من رأي نيتشه أيضًا – وكنا نصدقه تمامًا– أن يبني الإنسان بيته فوق سفوح البراكين!

ومات الفيلسوف العظيم قبل أن يرى ما الذي تفعله البراكين في الناس والحيوان والوديان. وكيف تؤدي الحمم إلى الموت، والغازات والأبخرة إلى أمراض ليس أخطرها السرطان.. ولكنني رأيت بركان إسترومبولي الإيطالي عن قرب، ورأيت بركان هاواي من طائرة صغيرة.. وكنت أول من كتب عنه.. ومجلة «آخر ساعة» أول مجلة في العالم نشرت لي مقالاً طويلاً مع صور البركان سنة 1959. وكيف كنا ندور فوق البركان بحماس شباب لا يقدر معنى الخطر. فكل الذي كان يهمني هو أن أرى وألمس وأكتب. وكان من الممكن بنسبة 99٪ أن تحترق طائرتنا الصغيرة التي تشبه عصفورًا قصير الريش لا يدري فداحة اللعبة المميتة التي يمارسها.

ولما نزلنا من الطائرة العصفورة وجدنا الصخور الملتهبة التي خرجت من فوهة البركان قد نفذت من جناحي الطائرة على مدى

ملليمترات من مستودع البترول!! وكيف أن الدخان الساخن جدًا كان من الممكن أن يجعل الطائرة دخانًا لو بقينا ندور فوق البركان عشر دقائق أخرى.

هكذا قال لنا كبير خبراء المطار.

ثم قال لي: فعلاً الجهل نعمة كبرى! فلو عرفت مدى هذه الكارثة ما ركبت هذه الطائرة، ولا اقتربت من هذا البركان؟!

وبالقرب من مانيلا في الفلبين تناولت غدائي في فوهة بركان خامد.. وكانت هذه هي الموضة. فالأرض ترتعش من تحتي، وأنا لا أعبأ بذلك. فعلماء الفلك قالوا إن البركان نائم قرنين آخرين!! ورأيت ما فعله بركان فيزوف في مدينة بومبي، فقد انفجر البركان، فتحول الناس إلى تماثيل بارزة ونصف بارزة.. وتجمدت مشاعر الخوف على الوجوه رائعة مروعة. لقد مات البركان الوحشي وعاش البركان الفنان!

الناس: ثلاثة أنواع!

أناس يحلمون ولا يعملون.. وأناس يعملون ولا يحلمون.. وأناس يعملون بما يحلمون.. أما الذين يحلمون ولا يعملون فهم الشعراء الذين وصفهم القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: 225، 226].

ويقول القرآن عن الرسول عليه السلام: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: 69]. أي هؤلاء الذين يعيشون في عالمين.. خيالهم والواقع.

ويظلون غارقين في الكلام.. وأنهم عاجزون عن تحقيق ما يحلمون به.. وأنهم يخرقون ويهلوسون أيضًا.. يحلمون بالثراء، ولا يفعلون أكثر من ذلك، يحلمون بالإصلاح وهم نائمون على جنوبهم.

وهناك أناس يعملون وينتجون ويرون أن واجبهم هو العمل وأداء الواجب.. فهم المنظمون المنضبطون. وكان فلاسفة الإغريق يرون أن الفضيلة هي الوظيفة، وأن الإنسان الفاضل هو الذي يؤدي وظيفته.

وكانوا يقولون إن فضيلة العين أن ترى، وفضيلة الأذن أن تسمع وفضيلة العقل أن يفكر.. فالوظيفة هي الفضيلة.. وأحسن نموذج

لهؤلاء الناس الجنود الذين ينفذون الأوامر، ولكنهم ليسوا القادة الذين يتقدمون ويبتكرون ويغامرون.. ويخرجون على التقاليد والقواعد من أجل القفز بالإنسانية إلى الأمام.. وكل خطوات الإنسان إلى الأمام جاءت من أناس انضبطوا أول الأمر، ثم خرقوا القانون بالإبداع والشجاعة، وهؤلاء هم النوع الثالث الذين أوتوا القدرة على أن يحلموا ويحققوا أحلامهم، وهم القلة النادرة من مخلوقات الله.

وهم العباقرة وهم الثوار المصلحون المثاليون الذين تخيلوا صورة رقيقة للمجتمع، ثم اتجهوا إليها وحققوها.

شوقي يقول: أنتم الناس أيها الشعراء..

أي أكثر الناس إحساسًا ورحمة وتذوقًا للجمال وقدرة على الإبداع.. وماوتسي تونج هو الذي قال: لا ثورة بغير شعر.. أي أنت ثائر، إذن أنت شاعر.. أي أنت الإنسان الذي يحلم ويتخيل ويبدع.. ثم ينتقل من موسيقى الشعر إلى موسيقى الهندسة والعمارة والزراعة والصناعة!

عضو واحد يكفي جداً!

نعم ممكن جدًا أن يعيش الإنسان على عضو واحد.. وهذا العضو قد امتاز عن كل الأعضاء بقدرة فريدة.. في مصانع العطور نجد عددًا من الخبراء لديهم القدرة الفذة على التفرقة بين العطور في القوة والنفاذ.. وإذا أغمضنا عينيه وأتينا خلاصة أحد العطور فإنه يقول لك: ف 26 أو ن15. ولا يخطئ، وهو يعيش على هذه الخاصية التي انفرد بها هو وأولاده وأجداده عن سائر الناس. وإذا نظرت إلى أنفه من قريب أو من بعيد فلا فرق بينه وبين أي أنف آخر!

وعندما ذهبت إلى مزارع الشاي في مدينة كولمبو عاصمة سريلانكا، زرت حقول الشاي والمصانع الملحقة بها، ودخلت إحدى القاعات فوجدت بها مئات من أكواب الشاي، وكل كوب له لون واسم ودرجة ومكتوب عليه بخط واضح. وجاء الخبراء وطلبوا منا أن نمتحنهم. ووضعوا عصابة على أعينهم، وطلبوا منا أن نختار أي فنجان في أي مكان. وقدمت الفنجان. واحتسى منه القليل ومضمضه وبعد لحظة قال: ت 00141 وفعلاً كان هذا الرقم.. وكوب ثان وثالث ورابع، ولم يخطئ مرة واحدة.. وسألنا. قالوا لنا إن هذه قدرة خاصة في حاسة التذوق وهي مهنة وراثية.. أو موهبة وراثية.. ولكي يحتفظ

بهذه الموهبة فهو لا يدخن ولا يشرب الخمر.. أي لا يقوم بأي عمل يضعف حاسة التذوق عنده!

وفي مصانع السجائر في مدينة الجيزة عندهم خبراء يسمونهم: الخرمنجي؛ أي الذي يستطيع أن يفرز أنواع السجائر.. وأحسن خلطة من السجائر.. وكيف اهتدوا إلى الخلطة السعيدة التي يختارون منها أحسن الأدخنة.. فيأتون له بأي نوع من السجائر، وهي كثيرة جدًا، وكل واحدة لها رقم.. ويطلبون إليه وهو معصوب العينين أن يسميها. فيقول.. ويكون صحيحًا. كيف؟ لنفس الأسباب؛ إنها موهبة في الشم فريدة ولا يملكها إلا القليلون.. ثم إنه لا يدخن ولا يشرب الخمر ولا يستخدم العطور!

وعندما جاء (بيليه) ساحر الكرة البرازيلية إلى مصر وأقمنا له حفلة في مؤسسة «أخبار اليوم» طلبت إليه أن يخلع حذاءه.. وخلعه.. وجوربه.. وخلع الجورب.. والبنطلون.. ورأيت ساقيه وقدميه.. لا فرق بينهما وبين قدمي أنا وساقي.. ولكنها موهبة فوق.. في دماغه.. موهبة مثل الأنف والأذن واللسان!

عندما ذهبت إلى محل (ميكوموتو) لبيع اللؤلؤ المزروع قدموا لنا عددًا من الخبراء، والخبير يستطيع أن يمسك ألف حبة من حبات اللؤلؤ ويفرزها.. باللون والحجم ودرجة الاستدارة.. بمجرد النظر واللمس.. أكثر من ذلك يستطيع من دون أن يخطئ أن يقول لك كم تزن هذه الحبة.. والفرق بينها وبين حبة أخرى جزء على عشرة من الجرام أو من المليجرام.. ومن المستحيل أن يخطئ. كيف؟! نفس الإجابة.. إنها نفس الموهبة.. وهذا الرجل ممنوع أن يحمل شيئًا في يديه أثقل من ملابسه وإلا..

.. صرت له عبدًا!

أنا من المدرسة القديمة جدًا التي شعارها: «من علمني حرفًا صرت له عبدًا».

وعندما كنت أحفظ القرآن الكريم في كُتَّاب القرية كان سيدنا- أي الأستاذ- يكلفني بأعمال أخرى في البيت.. مثل الكنس والغسل وخرط الملوخية وتقميع البامية.. والدخول في أعشاش الفراخ لمعرفة ما إذا كانت قد وضعت بيضها أم لا، وأعود إلى البيت كل يوم وقد تلوثت ملابسي.. وتراها أمي ولا تقول شيئًا وكذلك أبي. وإنما يشيران إلى أن أغيرها فورًا. والمعنى: أن ملابسي تلوثت لأعمال إضافية كلفني بها سيدنا. ولا اعتراض لهما على ذلك. يكفي أنه يحفظني القرآن الكريم.. وأي شرف لي وللأسرة؟!

وعندما كنت طالبًا في الجامعة، كنت مفتونًا بالمستشرق الألماني باول كراوس؛ فقد قرأت الأبحاث العلمية والفلسفية التي ترجمها لنا أستاذنا د. عبد الرحمن بدوي. وكان د. كراوس يدرس اليونانية واللاتينية. وكنت أول من يذهب لمحاضرته وآخر من ينصرف. وأحمل عنه الكتب والبالطو والحقيبة. ويطلب مني أن أذهب إلى المطبعة لمراجعة القاموس الذي يعده باللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والعربية..

وكان يطلب مني أن أذهب إلى بيته في الزمالك بالقاهرة، ولا يسألني كم أنفقت في المواصلات وكم ساعة ولا ماذا أكلت ولا ماذا شربت.. ومتى أذاكر. لا هو سألني ولا ظهر الملل أو التعب على ملامحي.. سنة وراء سنة!

وفي نهاية العام، علم أنني لست من تلامذته وإنما تلميذ في قسم الفلسفة، ولأنني محب له تطوعت بكل ذلك. وكانت صدمة له. أفاق بعدها وكلفني بأعمال أخرى، كأنني لم أقل له شيئًا. وكأنه لم يلحظ ذلك.

وكان أستاذي منصور باشا فهمي يدرس لي (فلسفة الجمال).

وكنت طالب الامتياز الوحيد في قسم الفلسفة لمدة عشر سنوات. وطالب الامتياز هو الذي يحصل في كل المواد على درجة جيد جدًا في الأقل.. وكنا نجلس في غرفة صغيرة. وكان يدخن البايب – وهو عذاب لا يوصف. لا هو تنبه إلى ذلك ولا (سعالي) المستمر كان يدله على أي شيء!

كان يطلب مني أن ألخص له فصول بعض الكتب الفرنسية التي تتحدث عن معنى الجمال والفرق بين الجمال والحسن.. والجمال المادي والمعنوي والروحي.. والاختلاف في درجة التذوق وكيف ارتقى الحس عند الإنسان. وكانت لي نظرية متواضعة أقول فيها: إن صوت الإنسان مليء بالمشاعر التي تدل عليه عند المرأة والرجل. لدرجة أننا في اللغة العامية نقول عن صوت الرجل أو صوت المرأة: حس الرجل؛ أي صوته.. وحس المرأة؛ أي صوتها.. وبنيت على ذلك حكايات وروايات.. وكان الباشا يقرأ كل ذلك في الإذاعة ويطلب مني أن أسمعه وأقول رأيي..

فكنت أقول له (حِسَّك) يا باشا في غاية الجمال. فقد صرت له عبدًا!

لأجيال من بعدنا

عندي أسرار لا أستطيع نشرها. ولكن سوف أتركها لمن يعنيه الأمر. عندي خطابات للأستاذ عباس العقاد إلى المحبوبة مي زيادة أرى أنه لا يصح نشرها الآن.. لما فيها من مشاعر مؤلمة.. عندي خطابات كتبتها السيدة نعمت علوي للشاعر الألماني ريلكه (1877 – 1926).. وهي الفتاة المصرية الجميلة التي مات على صدرها.

عندي خطابات لعبد الحليم حافظ، فقد كان يحب من كنت أحب أيضًا. وكان يبعث إليها بمكنون نفسه. وكأنه يحدث نفسه ويقول لها رأيه في كل الذين حوله. من يحب ومن يكره ومن يتظاهرون بحبه وهم لصوص ومصاصو دماء. أما رأيه في الفنانة سعاد حسني فيقول: أحبها وتحبني.. ولكن حياتنا معًا مستحيلة. فإذا ظهرنا معًا في فيلم فهو تكرار لفريد الأطرش وأخته أسمهان.. أو هو يغني وهي ترقص.. وإذا كانت جميلة على الشاشة فهي مملة بعد ذلك. وكيف أنه يكره عبد الوهاب الذي يحقد عليه.. وكان يتمنى من أم كلثوم أكثر من ذلك.. ثم يتحدث عن صديقة له ويقول: أجمل من خلق الله، وأحط من عشق الشيطان.. فهي جميلة وكذابة وحلوة وحقودة.. وهي وهي.. ثم يتناول كل أصدقائه بصفات مؤلمة، وله آراء أخرى في أقاربه. وأرى أن تبقى صورة عبد الحليم الفنان الرقيق الغلبان

الجميل، ولا أرى أن هناك أية فائدة من نشر أسرار تؤدي إلى إفساد هذه الصورة البديعة، التي رسمها حب الناس له!

وعندي تسجيلات صوتية للرئيس السادت، تساوي أكثر من مائتي ساعة.. بعضها نشرتها.. وبعضها أوصي بأن ينشر فيما بعد في الوقت الذي أراه مناسبًا. ولا يزال الوقت غير مناسب. ثم رأي السادات في كثير من الناس. من مساعديه ووزرائه والعسكريين والمدنيين ومستقبل مصر. وكيف يمكن أن يكون أفضل. وعيوب النظام الملكي وفي نفس الوقت ماذا كانت مزاياه. ولم يكن السادات في هذه التسجيلات معاديًا تمامًا للملكية. ولكن يؤكد أن إفسادًا عظيمًا أصاب مصر الثورة. وأنه لو طال به الأجل لفعل كذا.. وفعل كذا..

ثم رأي الرئيس السادات في زوجته وأولاده واحدًا واحدًا- منتهى الحب في كل الذي قال.. أما رأيه في زعماء إسرائيل وزعماء إيران وزعماء سورية ولبنان واحدًا واحدًا - فعلي درجة رفيعة من الفهم وحسن التقدير. ويطلب السادات من الأجيال من بعده أن تكون واقعية. وأن تحاسب نفسها أكثر مما تحاسب الغير..

ورأي السادات في إيران: أن خريطة الشرق الأوسط بعد ثورة خوميني سوف تتغير نهائيًا. ولن يعود الشرق الأوسط إلى ما كان عليه. وأنه مختلف مع صديقه العزيز شاه إيران، فالذي حدث في إيران ليس أمرًا عابرًا، بل منتهى الخطورة والطموح أيضًا!

يرحم الله هذا وذاك!

في الأسبوع الماضي، ذهبت أقدم واجب العزاء. ولم يكن عدد الناس كثيرًا. ربما كان السبب أنني جئت مبكرًا قبل صلاة المغرب. وبعد الصلاة تقاطر الناس بالأجساد. وحاولت أن أطيب خاطر الجالس إلى جواري.. فقلت له: إن العلماء ليست لهم شعبية.. فلا تتوقع أن يجيء كثيرون. وهذا هو الفارق بين المطرب والعالم والأديبة والراقصة..

وقلت له: إن الأديب مصطفى المنفلوطي توفي يوم إطلاق الرصاص على سعد زغلول باشا، فامتلأت الشوارع بالمظاهرات. وخلت جنازة المنفلوطي من المشيعين. وفي ذلك، قال شوقي أمير الشعراء:

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك في عصف الرياح الناعي

من مات في فزع القيامة لم يجد قدمًا تشيع أو حفاوة ساعي

والعالم المصري الكبير د. حسن عثمان الذي ترجم «الكوميديا الإلهية» للشاعر الإيطالي، مات يوم وفاة طه حسين، فلم يمش في جنازته أحد. والأديب البريطاني هكسلي مات يوم اغتيال الرئيس كنيدي، فلم نعرف أنه مات إلا بعد ذلك بسنة.. وجنازة الموسيقار محمد عبد الوهاب كانت متواضعة وكذلك الصحفي الكبير الذي هز دنيا الصحافة، مصطفى أمين، كانت جنازته

بالعشرات.. ويوم مات الصحفي اللامع أحمد الألفي عطية، توفي الصحفي والشاعر كامل الشناوي، فتحولت كل القلوب والأقدام وراء كامل الشناوي..

وجنازة عبد الحليم حافظ كانت محيطًا من الناس والدموع وكذلك جنازة أم كلثوم وعبد الناصر. أما جنازة الرئيس السادات، فكانت أقل كثيرًا، لأن القتلة هددوا بقتل كل من يمشي في الجنازة كما أن الدولة خافت على زعماء العالم الذين يسيرون في الجنازة.. والشاعر الكبير محمود شكري، كان قد اختفى عشر سنوات حتى ظن الناس أنه انتحر فعلاً.. واكتشفت وجوده بالصدفة وبعدها بأيام مات.. فكأنني جعلت موته علنًا. ولم نجد أحدًا يمشي في جنازته حتى توهم بعض الناس أن النعش يمشي وحده.. أو كأنه هو وحده الذي يمشي في جنازته؟!

ومضيت أهون على جاري، وأنه يجب ألا يحزن. فهذا مصير العلماء في الدنيا. ولحسن حظ العلماء أنهم لا يرون من جاء ومن لم يجئ للعزاء أو للسير في الجنازة. وكان أستاذنا العقاد إذا مات له أحد لا ينشر له نعيًا. والسبب هو أنه لا يريد إكراه أحد على تقديم العزاء.. إذ كيف يعزيه فيمن لا يعرف!

ولابد أن جاري، وهو من أهل الفقيد قد أراحه ما قلت.. ولما نهضت مودعًا بالغ في شكري. وأعدت النظر حولي فلم أجد أحدًا كثيرًا. ومن عادتنا أن نكتب اسم المتوفى على لوحة بارزة حتى لا يخطئ أحد كما أخطأت. فالمتوفى الذي قصدت أن أذهب للعزاء فيه يقع على الجانب الآخر من المسجد..

وقرأت له الفاتحة في السيارة، وليست هذه أول مرة!

بقلم (ذو النون المصري)؟!

سنوات طويلة كنت أوقع مقالاتي بإمضاءات نسائية سيلفانا ماريللي وهالة أحمد ومنى جعفر وأحلام شريف وكان السبب أنني أكتب في موضوعات نسائية. وخصوصًا موضوعات الموضة التي أنقلها عن المجلات الفرنسية والإيطالية.

ومرات قليلة كنت أوقع مقالاتي بإمضاء (ذو النون المصري).. ولا أعرف لماذا اخترت هذا الاسم، مع أنه لا وجه للشبه بيننا، فهو رجل صوفي صاحب مجاهدات وحكايات وروايات وأنه صعيدي أو نوبي. وقد مات في القرن العاشر الميلادي، وكانت له كرامات لا يصدقها العقل.

وأطلقوا عليه اسم (ذو النون) أي صاحب الحوت أو التمساح.. فيقال إن أمًّا شكت إليه أن ابنها ابتلعه التمساح فذهب إلى النيل وقال له: يا نيل أخرج هذا التمساح، وخرج التمساح، فمدَّ يده واستخرج الطفل حيًّا من بطن التمساح!

ولا وجه للشبه بيننا.. إلا إذا كانت الرحلات والتنقل بين كل البلاد العربية يعظ الناس ويظهر لهم كراماته.. ويقال إنه ولد في أقصى الصعيد ومات في مدينة الجيزة. ويقال إن الطيور الخضراء كانت تملأ السماء فوق

نعشه.. ويقال إن جثمانه نقلوه في زورق في النيل لأن كثرة المشيعين قد تؤدي إلى تحطيم الجسر على النيل!

وفي القرآن الكريم (ذو النون) آخر وهو أحد الأنبياء، وقد ابتلعه الحوت وأخرجه الله سالمًا. والقرآن يقول: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: 88].

ولا أنا مثل هذا النبي..

ولكن أحسست بأنني مثل ذي النون الذي ورد في القرآن، عندما قرأت الفيلسوف الفرنسي ألبير كامي، الذي شبه الإنسان في العصر الحديث بذي النون، الذي ابتلعه الحوت.. والحوت هو الناس.. الجماهير.. فالمفكر يجب ألا يبتلعه الحوت.. وأن ينظر إليه ويتأمله ولا يقترب منه حتى يبتلعه. فإذا ابتلعه فلا توجد معجزة لخروجه حيًا. وأن مشكلة الفنان والمفكر في العصر الحديث أنه لا بد أن يتجه إلى الجماهير يعيش بها وعليها وضدها. وليس نبيًا حتى يمكن إنقاذه.. وليس نبيًا حتى يستطيع أن يظل حيًا إذا ابتلعه الحوت.. ربما كان هذا هو المعنى الذي أحسست به وأنا صغير، ولكن لم أستطع أن أهتدي إلى كل هذه المعاني إلا عندما كبرت..

وربما يكون السبب هو أن الاسم أعجبني وحاولت أن أعطي لنفسي معنى فلسفيًا صوفيًا، أو أكون لغزًا عند القارئ، فيظن أنني كاتب كبير وعالم عظيم وأنني متواضع لا أريد أن أكشف عن حقيقتي.. يجوز!

جاءت تطلب العلم

في مؤتمر الأدباء الذي انعقد في دمشق ثم في بلودان. تبارى الشعراء، ولكن الذي استولى علينا بالضحك هو الزعيم اليمني محمد أحمد النعمان. فكان لا يكف عن الهجوم على الملك اليمني أحمد حميد الدين. وكان يمنعه الأستاذ يوسف السباعي ويرجوه ألا يحرجنا مع الإمام أحمد، ولكن النعمان كان يتحايل ويجد أسبابًا عجيبة لمواصلة الهجوم عليه..

وكان رجلاً ساخرًا وله ابتسامة فولتير وسخرية طه حسين وبطرس غالي وخبث علي ماهر باشا. فمثلاً يقول: كان في اليمن ستة من القراء قتل خمسة ولم يبق سواي!

ولما هدده يوسف السباعي أن يمنعه من الكلام كان يقول: لا داعي لأن أقول.. يقول شاعرنا الزبيري: مشانق علقت..

ويمنعونه من إكمال القصيدة. ويرد النعمان قائلاً: يا سيدي إنها تقاليدنا في اليمن، فنحن لا نبدأ بالغزل والحديث عن الأطلال وإنما بالمشانق. وكان الأستاذ النعمان يرتدي الجبة والقفطان في ذلك الوقت. وظهرت شاعرة سورية جميلة، فعلاً جميلة وصوتها أيضًا. وألقت قصيدة لا أذكر منها شيئًا الآن.. واقترب مني الأستاذ النعمان: ما هذه؟ ما حاجتها

إلى قول الشعر.. إنها قصيدة. ولا داعي لأن تلقي قصيدة.. سبحان الله.. هذه قصيدة.. تلقي قصيدة.. فأين تذهب عقولنا بعد ذلك؟!

ومنذ أيام وأنا أقلب في مذكرات قديمة.. سجلت حوارًا مع الأستاذ النعمان قال: يا أخي من فضل الله عليكم أيها المصريون أن لديكم أم كلثوم وعبد الوهاب ومن لطف الله عليكم أن تحية كاريوكا لا تقول الشعر وأن زينات علوي لا تغني.. وأن لديكم النيل العظيم.. من شاء شرب حتى ارتوى ومن شاء غرق حتى مات..

ومما قاله الأستاذ النعمان: لو كنت مصريًا لكفرت بسورية.. ولو كنت سوريًا لكفرت بلبنان. ولو كنت لبنانيًا لكفرت بسورية ومصر واليمن.

لماذا؟ لم أسأله. وهو لم يقل. وتمنيت لو أنه شرح لي كل هذه الفوازير..

وفي مذكراتي أيضًا أنني زرته في فندق شبرد. وفجأة خرجت سيدة شقراء جميلة. والتفت أسأل. ولكنه لم يجب. وعندما ودعته قال لي: الإجابة عن سؤالك الذي لم تعلنه.. أن هذه السيدة الجميلة جاءت تطلب العلم!

عبقرية السائق المصري!

صديق دبلوماسي فوجئ بعسكري المرور في لندن يستوقفه وفي غاية الأدب، ويسحب منه رخصة القيادة.. ولم يقل سببًا لذلك. وذهب صديقي وعرف أنه هو قليل الأدب – أدب قيادة السيارة. فهو يعرف كيف يقود السيارة ولكن ليس في أدب. وسأل، فقيل له: إنه عندما يريد أن يدخل في أحد الشوارع، فإنه لا يضيء مصباح الإشارة قبل أن يدخل بوقت كاف، حتى لا يريك من يسير وراءه!

المعنى: أنه يقود السيارة، ويعرف القواعد والأصول.. ولكن المطلوب هو القليل من الأدب!

ويبدو أنها إحدى صفات السائق المصري.. وأذكر أن أمريكيًا قال لي: إن السائق المصري عبقري، إذ كيف ينطلق في الشوارع وينحرف يمينًا وشمالاً ويدخل في الممنوع، ثم إن حادثًا واحدًا لم يقع.. هذه براعة من كل السائقين. إن حركة المرور في القاهرة إذا نظرت إليها من طائرة تخيل إليك أنها مجموعة من الأفاعي تزحف وتلتوي وتتداخل ولا تقع أية حوادث؟!

ومعه حق. وأذكر أنني كنت في أوسلو لنشهد الاحتفال بمنح الرئيس السادات جائزة نوبل مع مناحم بيجين، وركبنا سيارة دبلوماسي مصري

يعمل في السويد، وفوجئنا بمن يقف ويدق زجاج النافذة ويقول لنا: هنا النرويج، وليست السويد!

يعني أن النرويج هي بلد الانضباط وليست كالسويد، التي يتهمها بأنها ليس فيها انضباط. أما السبب فهو أن سيارتنا وقفت على الخطوط البيضاء المخصصة للمشاة!

قال لي الصديق ممدوح سالم، رئيس وزراء مصر الأسبق، إن وفدًا أمريكيًا جاء لينظم المرور في القاهرة، وتصادف أن الوفد جاء في (عيد المرور).. ونزل بهم ممدوح سالم إلى الشوارع.. وظهرت البهجة على وجوههم. وسألهم فقالوا: إنها فكرة جميلة حقًا أن يكون (عيد المرور) هو يوم إجازة من كل قواعد المرور، يجب أن نفعل مثلكم!

وليس هذا نقدًا للسائقين في مصر، ولكنه حقد عليهم. فقد كنت أقود سيارتي سنوات طويلة، وارتكبت عدة حوادث تحطمت فيها أكثر من سيارة. مرة عندما اصطدمت بالمترو.. ومرة كاد يموت فيها الأساتذة كامل الشناوي ويحيى حقي وفكري أباظة عندما اصطدمت بالترام.. والسبب هو أنني كثير (السرحان).. واليوم بدلاً من السرحان، فإنني أركز انتباهي على سائقي الذي هو مصري صميم!

يعني إيه؟ أرجو أن تقرأ المقال من أوله!

لن أسأل لماذا كان ما كان!

لا أعرف حتى اليوم لماذا التقى بنا الرئيس جمال عبد الناصر قبل سفرنا إلى عمان ودمشق وبيروت، وكان الهدف القضاء على (نادي الخريجين) الذي أنشاه وتزعمه المليونير اللبناني إميل البستاني. المهم سافرنا. ولا يهم ماذا فعلنا بعد ذلك. فالسفر غاية.. غايتي على الأقل.. وفي سينما الحمراء بالقدس العربية، ألقى الملك حسين خطبة حماسية بصوته الممتلئ القوي. وأدهشني أنه لا يخطئ لا في النحو ولا في الصرف. وأنه تحدث مرتجلاً، شيء غريب. أما الإخوة المصريون - فيما عدا الشيخ الباقوري - فأعلنوا أن سيبويه شخصية خرافية.. ولذلك أطلقوا سراح الأسماء من قيود إن وأخواتها وكان وأخواتها والأفعال من أغلال إن وكأن ولم ولن.. لقد أشعلوا ثورة الأفعال والأسماء- ولم يدهشني ذلك.

وقام إميل البستاني وارتجل خطبة عصماء - وقال نثرًا بليغًا وشعرًا جميلاً.. ولا غلطة واحدة في النحو والصرف ولا ظهر عليه أي غضب أو استياء، عندما أسفرت الانتخابات عن فوز مصر بقيادة (نادي الخريجين).. ولا أعرف ما فائدة ذلك، ولماذا اعتبرنا ذلك نصرًا - مع أنه ليس نصرًا، فقد كان عددنا أضعاف عدد كل الوفود الأخرى. وطبيعي أن نفوز؛ فنحن الأغلبية.

وجاء الأستاذ أحمد سعيد مذيع (صوت العرب) الشهير الجهير المثير يطلب إلينا ما نحب أن نسمعه من أغانٍ. وجعل لبرنامجه هذا اسمًا هو (ما يطلبه المؤتمرون).. ووجدتها فرصة للضحك، فكتبت ورقة أطلب أغنية: يا عوازل فلفلوا لفريد الأطرش - أما الإمضاء فهو: إميل البستاني..

وكأنني ألقيت شعلة نار في محطة بنزين، وتضاحك الحاضرون وهاج وماج أحمد سعيد قائلاً: انظروا من الذي طلب ماذا.. من هم العوازل وما الذي يقصده بالفلفل.. فلسنا العوازل لأننا حصلنا على الأغلبية. وهذا النصر ليس فلفلاً..

ولم يسمع أحد صوت إميل البستاني وهو يقسم بأنه لم يكتب ولم يقل. وليس معقولاً. وتلفت يمينًا وشمالاً وقال: لعله.. بل من المؤكد أنه الأخ أنيس منصور.. بل هو!

وفاتني منذ ذلك الحين أن أسأل ما الذي كسبناه.. وماذا كان الهدف.. ومن بين كل الذين ذهبوا يوجد الآن حي يرزق.. د. عزيز صدقي رئيس وزراء مصر الأسبق. ونسيت أن أسأله، ويبدو أنني لن أفعل!

وهذه هي الأسباب!

ترددت في الرد على تعليقات القراء الأفاضل. فهم لا يعرفونني. ثم إنني لست إحدى البديهيات. ككاتب أو كقارئ.

يقول أحد القراء. لا بد أنني نسيت القرآن الكريم الذي حفظته طفلاً. أما أنني نسيت فليس صحيحًا. وهو لا يعرف. ومن الصعب على أي إنسان إذا نسي ألا يتذكر. وهناك وسيلة حديثة لذلك.. فهناك أجهزة التسجيل التي توضع في الجيب أو في التليفون المحمول. فإذا نسيت أو تخيلت أنني نسيت آية، فليس أيسر من أن أستعيدها فورًا. وهذا يحدث كثيرًا..

ويقول قارئ إنني تحدثت عن بعض العواصم الكثيرة التي زرتها وتعلقت بها وعلقت بي: آه لو رأيت المدينة المنورة..

وأقول للقارئ الفاضل إنني اعتمرت أكثر من عشرين مرة آخرها الشهر الماضي. وأديت فريضة الحج سبع مرات. وكتبت كثيرًا وعميقًا وفلسفيًا وصوفيًا عن المدينة المنورة. وجاء ذلك في العديد من كتبي.

يسألني قارئ فاضل: ولماذا فزعت أمي أن أذهب إلى الأزهر.. ولم يكن السبب هو ضعف إيمان أمي.. والعياذ بالله. فهي سيدة قوية الإيمان ومن أسرة كذلك. وجدها صاحب مقام يزار وهو (سيدي الباز).. وهي من أسرة

الباز الشهيرة في المنصورة ودمياط. وإنما كانت تحلم بأن أكون وزيرًا أو رئيس وزراء.. وهي كأي أم تحلم بأن يكون ابنها سيد الناس.. ثم إن في عائلتها وزراء. وأشهرهم إبراهيم باشا عبد الهادي الذي كان رئيسًا للوزراء.. ويوم طلب مني الرئيس السادات أن أكون وزيرًا للثقافة سنة 1973 في وزارة الدكتور عبد العزيز حجازي اعتذرت. لأن الكاتب أطول عمرًا وأكثر حرية. ولي مقولة مشهورة: إن الكاتب له شهادة ميلاد، وليس له تصريح بالدفن. أما الوزراء فأقصر عمرًا. ثم إن أمي كان يسعدها أن أكون وزيرًا. وقد ماتت.. ولم يعد لي أحد يسعده ذلك!

وقارئ فاضل سألني ولماذا لا أكتب في السياسة. والجواب: أنني أكتب في السياسة أحيانًا في باب يومي آخر اسمه (مواقف) في صحيفة الأهرام. ولم يكن لي إلا شرط واحد عندما شرفتني «الشرق الأوسط» بأن أكون من كتابها الكبار: ألا أكتب في السياسة، وكان ذلك هو المطلوب فشكرًا!

منتهى الجلال والجمال!

هل لأن الوقت كان كثيرًا وطويلاً ولا نعرف كيف نملؤه؟

هل لأننا عشاق الصوت الجميل.. صوت أم كلثوم وعبد الوهاب.. وصوت عوالم وراقصات شارع محمد علي.. هل لهذه المشاعر العميقة بالجمال كنا نلاحق أصحاب الأصوات الجميلة: الشيوخ محمد رفعت وعلي محمود والحصري ومصطفى إسماعيل وعبد الباسط عبد الصمد والشعشاعي وشعيشع.. لم أكن وحدي، وإنما كان معي من يتذوقون التلاوة ويملكون شرح الجمال في الأداء.. أما الفرق بين محمد رفعت ومصطفى إسماعيل أن الشيخ مصطفى يقرأ على القاعدة. أما الشيخ رفعت فيجعلك تشعر بجلال القرآن وعظمة المعاني.. وليس له نظير بين القراء في العالم الإسلامي.

يوم ذهبت مع الرئيس السادات إلى (وادي الراحة) في سيناء لإجازة عدة أيام. كان الطبيب نعينع يجلس عند نهاية الوادي ويقرأ في هذا الصمت العميق المهيب.. ويردد صعود موسى عليه السلام. حين كلم الله. بينما قومه كانوا يعبدون العجل من ذهب.. وكان صوت الدكتور نعينع رائعًا ساحرًا. فهو طبيب الأطفال الذي أحب التلاوة وتخصص فيها وتفرَّغ لها.. أما أستاذه فهو الشيخ مصطفى إسماعيل وعرفت من الأصدقاء أنه

يستطيع أن يقلد الشيخ رفعت وغيره من عظماء القراء. ولكنه يفضل الشيخ مصطفى إسماعيل لأنه قارئ وقور وعظيم الاحترام..

ولما قلت للرئيس السادات إن الدكتور نعينع يستطيع أن يقرأ على طريقة وأداء وروعة الشيخ رفعت. هل تأذن لي في أن أطلب منه ذلك..

ولكن الرئيس السادات قال ليس هذا وقته ولا مكانه.

وبعد أيام تلقيت أجمل وأروع هدية من الرئيس السادات: أسطوانة مسجل عليها سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بأصوات: محمد رفعت ومصطفى إسماعيل وعبد الباسط عبد الصمد والطبلاوي.. ففي مثل هذه الأسطوانة وجدت كل معاني الجلال والجمال.

جل من لا يسهو!

وقارئ فاضل لم يقرأ ما كتبه قارئ آخر، إن كنت حقًا ما زلت أحفظ القرآن الكريم. وحياة المصحف الكريم ما أزال أحفظه. ولا أعرف طريقة للتدليل على صدق ما أقول. وأنا أعذر القارئ الفاضل، فمن الصعب أن يظل الإنسان يحفظ ما قد حفظه من خمسين أو ستين عامًا. ولكن الحرص على ذلك يجعلنا نسترجعه قراءة وسماعًا. فهي نعمة كبرى وميزة عظمى ومتعة مباركة أن تحفظ القرآن الكريم، وأن تحرص على ذلك وأن تراجع نفسك كلما احتجت إلى ذلك.

ولست فريدًا وحيدًا بين البشر، فملايين يحفظون القرآن الكريم وحريصون على ذلك. ولو قلت إنني قرأت التوراة، فهذا صحيح، ولكن لو قلت إنني قرأت التوراة (العهد القديم والعهد الجديد) وحفظتها فقد كذبت عليك. ولا يستطيع أشد المسيحيين تدينا أو اليهود أن يكون قد حفظها، فهي طويلة جدًا وصعبة وليست فيها موسيقى القرآن العظيم وبلاغته..

فالتوراة تضم 66 كتابًا وبها 1181 اسما.. من بينها اسم 188 امرأة و 99 ملكًا و 30 نبيًا و 1172 مكانًا، واسم 128 حيوانًا، وصفات الرب 192 صفة.. وأسماء النباتات والأطعمة والأمراض والمشروبات.

ولن تجد في العهدين القديم والجديد عبارات بليغة إلا في كتابين اثنين فقط هما (نشيد الإنشاد) و(المزامير).. وبقية الأسفار سرد. ثم إن التوراة مسجلة بأقلام البشر.. فهي ليست كتبًا منزلة من السماء.

وقد عانيت في قراءاتها ودراستها طويلاً وكثيرًا. وقرأتها ملخصة وقرأتها مبسطة وقرأتها مكتوبة للأطفال. وهي أصعب كثيرًا من الإلياذة والأوديسة وأصعب من كتاب (الشاه نامة) للفردوسي..

ولا يجعل قراءتها ودراستها صعبة سهلة إلا هذا العدد الهائل من العلماء والقساوسة والحاخامات، الذين تولوا شرحها وتبسيطها وتجميلها والإقناع بها.. وأذكر محاضرة للفيلسوف الرائع الأب بيلار دشردان في دير الرهبان الكاثوليك بالقاهرة يقول فيها: أن تحفظ القرآن هذا سهل ممتنع وأن تحفظ الأناجيل هذا سهل ممكن. وأن تحفظ (العهد القديم) فصعوبة لا مبرر لها. يكفي أن تحفظ القصص الرمزية ذات المعاني العميقة التي حددت طريق الخير في الحضارة الغربية. وقال: أنا شخصيًا لا أحفظها ولم أحاول!

وسرت همهمة في القاعة. فلم يتصور أحد أنه لا يحفظها، ثم أن يجاهر بذلك!

صدق الله العظيم!

هذه عادة في الريف المصري. فعندما يكمل الطفل حفظ القرآن الكريم يجيء عدد من المشايخ من حفظة القرآن الكريم يمتحنون الطفل فيختارون آية من سورة البقرة وآية من سورة التغابن أو الصافات أو الجن.. وعلى الطفل أن يستعين بالله ويكمل السورة.. حتى نهايتها أو بعضها.. فإذا نجح قام المشايخ وباركوه وهنَّئوا والده على هذه النعمة العظيمة والبركة..

أما صورتي: فطفل في العاشرة وقد حفظ القرآن الكريم في كتاب الشيخ/ سيد بقرية (نوب طريف) مركز السنبلاوين.. دقهلية. وقد ارتديت الجلباب الأبيض والطاقية البيضاء وجزمة جديدة، وقد أيقظتني أمي في ساعة مبكرة وطلبت مني أن أصلي ركعتين شكرًا لله. وصلت أمي إلى جواري وطلبت من الله أن يحقق آمالي ويحقق آمالها هي أيضًا. ثم دست في يدي قطعة من سكر النبات حتى يجعل الله أيامي كلها حلوة..

أما أبي فقد دعاني إلى أن أشرب الشاي بالنعناع كما يفعل كلَّ يوم ثم أسمعني أبياتًا من البردة النبوية. وطلب مني أن أرددها وراءه. وقبَّلني وتمنى لي كل ما يرضيه في الدنيا والآخرة..

وفهمت من الخادمة أنهم سيذبحون خروفًا وأن هذا الخروف هدية من عز الدين بك يكن صاحب الأرض التي يعمل أبي مفتشًا عليها.. ثم خروفًا آخر بعثت به السيدة نعمت هانم يكن وخروفًا ثالثًا من العمدة وإوزًا وبطًا من أناس كثيرين..

ولا أعرف ما سوف يحدث. ولكن كل الناس ينظرون لي نظرات خاصة ويدعون لي بالبركة ولكن أحدًا لم يقل إن هناك امتحانًا.. وإن المشايخ لا يجاملون.. ثم نودي علي وذهبت ولا أتبين وجوههم بوضوح.. وأجلسوني وسطهم.. وكنت مضطربًا. وحاول أبي أن يهدئ الطفل الصغير.. وهدأت. وتوالت الأسئلة. واستعذت بالله وقرأت. وباركوني.

ولابد أن يكون الإرهاق والاضطراب والخوف قد اكتسحني فطلبت من أمي أن أنام. واندهشت ولكن كانت سعادتها غامرة عندما قال المشايخ إنني نجحت. وحفظت القرآن الكريم وأشارت أمي إلى الفراش وسحبت الغطاء ونمت حتى صباح اليوم التالي. أما ما حدث في بيتنا من ضحك ووليمة جمعت عددًا كبيرًا.. فقد سمعت به ولم أره..

هنا رأى جيهان السادات!

كانت الجلسة مع الرئيس السادات طويلة في جزيرة الفرسان بالإسماعيلية المطلة على قناة السويس. ووقف الرئيس قائلا: تعبنا النهارده يا أنيس.. وتكلمنا عن الشرق والغرب ووجع القلب..

وكان الرئيس يحب أن يتفرج على سفن قناة السويس.. القناة التي أغلقها عبد الناصر وفتحها السادات.. وكانت السفن تتبختر في القناة شرقًا وغربًا.. وتطلق دخانًا كأنه مناديل تلوح بها للرجل الذي انتصر في حرب أكتوبر وفتح القناة للملاحة الدولية.. وكانت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل تقول: إن من حق إسرائيل أن تقتسم معنا دخل قناة السويس. أليست تحتل الشاطئ الأيمن للقناة.. الضفة الشرقية؟!

وكان موشى ديان يدعو إلى سحب العلم الإسرائيلي من فوق استحكامات خط بارليف؛ لأن المصريين كلما رأوه ازدادوا ضيقًا وغيظًا.. ثم عاد يقول: بل يجب أن يعتادوا على ذلك!

وجاء السادات وأطاح بالعلم ثم جعل خط بارليف يزحف على أرض سيناء وارتفع العلم المصري..

وكان يحب أن يتغنى بذلك.. ثم قال: تعالَ نتفسح في جزيرة الفرسان. واقتربنا من سيارة صغيرة وقال لي: اركب.. هل هذه أول مرة تركب سيارة جولف.

ولم أكن أعرف أن هذه هي آخر تطور في صناعة السيارة الألمانية (فولكس فاجن).. فقلت: بل هي أول مرة أرى أحدًا يركب سيارة سائقها حاصل على جائزة نوبل! هاها.. هاها..

وقد أعجب الرئيس السادات بعنوان كتاب للكاتب الأمريكي هيمنجواي الحاصل على جائزة نوبل.. أما عنوان الكتاب فهو «وليمة متحركة».. وكان يرى قناة السويس هي هذه الوليمة.. فعلى شاطئ القناة قبل ذلك رأى وعرف وأعجب وتزوج السيدة جيهان السادات!

من محمد محمود؟!

طلب مني الموسيقار محمد عبد الوهاب أن أمر عليه وأن أصحبه إلى عشاء في بيت السيدة فاتن حمامة. وذهبت وسمعت حكايات وضحكنا. وفي بيت فاتن حمامة كثير من الفنانين.

وعندما انتصف الليل سألت: أين محمد عبد الوهاب؟

فأشارت فاتن حمامة إلى إحدى الغرف، وقالت: إنه يغير ملابسه..

فمن غرائب عادات محمد عبد الوهاب أن يحمل ملابسه الداخلية فيغيرها إذا أحس بشيء من العرق. فهو يخاف من البرد.. أو الفارق الكبير في درجات الحرارة في البيت وفي الشارع..

ثم عدت أسأل عن عبد الوهاب. فقالت فاتن حمامة: أظن أنه يسأل عن أحد ليعود به إلى البيت. فقلت: أنا أتيت به وسوف أعود به!

ولم يجد محمد عبد الوهاب أحدًا يعود به إلى البيت.. فخرج في فزع يقول: عبد الحليم حافظ قال لي إنك مزكوم؟!

فنفيت ذلك تماما. فأنا أيضا أخاف من أن يصيبني البرد..

ولكن عبد الوهاب أصر.. وقال: إن هذه العمارة بها مصاعد كثيرة.. أنت تنزل بمصعد وأنا بمصعد آخر.. ثم تسبقني إلى السيارة

وتفتح نوافذها وسوف أتمدد في المقعد الخلفي. يعني أنه يتفادى أن يقترب مني.. وأكدت له: لو كنت مزكوما ما نزلت من البيت.. أنت تعرف!

ويبدو أنه تردد فقال: أنا عندي حل نهائي نقف نحن الاثنين ظهرا لظهر وتردد ورائي هذه العبارة: من منكم محمد محمود–فحرف الميم تكرره ست مرات وهذا الحرف هو المقياس الوحيد للزكام.. قل ورائي..

وقلت. وطلب مني أن أكرر.. ثم ابتهج وقال: يالله يا حبيبي.. براءة!

أول فاتحة للشهية: أول كتاب!

لا أعرف أول كتاب قرأته.. ولكن أعرف كتبًا كثيرة قلبت فيها، ولم أفهم. لأنني كنت أميًا لم أعرف الألف باء.. فالكتب بها صور لأشجار وطيور وبهائم.. وجدتها في مكتبة أحد أقاربي الذي كان يدرس الزراعة ولا أعرف أول كتاب قرأته.. اشتريته وجلست له.. ربما كان (محمد) للصحفي محمد صبيح.. الغلاف عبارة عن بدر كامل الاستدارة، وكلمة محمد تملأ هذا البدر. صاحب الغلاف هو صديقي بعد ذلك الفنان عبد السلام الشريف.. وكان الكتاب مثل الكتب المدرسية.. على شكل عبارات قصيرة وجمل مفيدة ولم يترك الكتاب أثرًا. ولم ألتفت في ذلك الوقت إلى سهولة العبارة. ففي مثل هذه السن لا أظن أن أحدًا يتوقف عند صناعة الكلام وإنما عند معنى الكلام..

ربما كان أول كتاب قلبت فيه وكان من الصعب أن أفهم، كتاب في مبادئ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم، كانت العبارة صعبة جافة..

أما الكتاب الذي جلست له وانحنيت بعظيم الاحترام والدهشة -والانبهار فهوكتاب «قصة الفلسفة اليونانية».. و«قصة الفلسفة الحديثة» من تأليف الدكتور زكي نجيب محمود وأحمد أمين. وقد قال لي زكي نجيب

محمود بعد ذلك: إن أحمد أمين لم يكتب سطرًا واحدًا، وإنما كان قد وضع اسمه على الغلاف شرطًا لنشر هذا الكتاب. فقد كان أحمد أمين يملك دارًا للنشر.. والكتاب مأخوذ عن «قصة الفلسفة» للكاتب الأمريكي الكبير ول ديورانت. هل أحببت الفلسفة بسبب هذا الكتاب؟ هل تمنيت شيئًا عند قراءته؟ هل هو كتاب أدبي أو فلسفي أو أدب الفلسفة أو فلسفة الأدب؟ فالعبارة جميلة مشرقة والكاتب يملك أن يقول وأن يجذب وأن يمتع، فهذا هو الكتاب.. وهذه هي الكتابة وهذه هي فاتحات الشهية الأدبية والفلسفية معًا!

الحب والدسيسة!

كانت البداية هي (روايات الجيب) التي كان ينشرها ويترجمها الأستاذ عمر بن عبد العزيز أمين كنت أقرأ كل ما أجد. ولا أعرف الفرق بين القصة القصيرة والطويلة والرواية والمسرحية.. وإنما أقرأ. ولا يضايقني إلا الأسماء الأجنبية. ولكن هذه الروايات هي التي جعلت لدي عادة القراءة وعادة الصبر على الأسماء الأجنبية.

ولم يكن من بين زملائي وأصدقائي في هذه السن الصغيرة من يعرف هذه الروايات أو انشغل بها. وكنت أقرؤها سرًّا خوفًا من أن يناقشها أحد. أو يستنكرها. فقد لاحظ أحد إخوتي أنني أقرؤها.. فخطفها وتوقف عند الغلاف. وعلى الغلاف فتاة حلوة. واستنكر هذا الكتاب الجنسي. ولم تكن إلا رواية (الجريمة والعقاب) لدستويفسكي.. وأقبلت على القراءة دون أن أتوقف عند الغلاف أو أربط بين الصورة على الغلاف وأحداث الرواية..

ومن يومها كنت أقرأ هذه الكتب الغريبة التي تجيء مكسرة ممزقة في جيوب الخفراء الذين يذهبون إلى المدينة ويفتشون عنها ويجدونها.. وكانت هذه الكتب السرية تلقي مني الخوف.. الخوف إذا جاءت والخوف إذا فرغت منها وأعدتها إلى أصحابها بسرعة، وإلا فلن يبعثوا بكتب غيرها.. فهل فهمت منها شيئًا. لا أعرف فلم أراجع نفسي ولا سألني أحد..

وربما كانت أول قصة أو رواية قرأتها وأعدت قراءتها لغرابة الكلام وسرعة الأداء.. ودهشتي للتراكيب الغريبة.. والعبارات التي تصدمني ولا أدري ما المعني ولا كيف كتبها صاحبها.. هذه الرواية هي (الحب والدسيسة) لشاعر ألمانيا فريديش شيلر. حكاية حب غريبة. ولا أظن أنني عرفت معنى الحب.. وكانت فيها عبارات غريبة لا أزال أذكرها. مثل: إذا باض الشيطان بيضة أفرخت بنتًا جميلة – عبارة بليغة ولكن ما معناها.

وعبارة جاءت على لسان والد الفتاة الحلوة عندما ذهب إليه شاب يطلب يد ابنته. فاستنكر الأب أن يفعل أحد ذلك.. فلماذا لا يذهب إليها هي ويطلب يدها. وقال: إن الذي يفعل ذلك يلهمني عدم الثقة به. لماذا لم تذهب إليها وتقنعها بدلا من أن تستعين بي على ابنتي!

وعبارة لم أفهمها وقتًا طويلاً عندما تحدث الأب والفتي عن الفتاة العذراء والفتاة التي ليست كذلك. فقال: إن الجنيه الذي ظهر من المطبعة الآن يساوي الجنيه الذي دار على حل شعره. كلاهما يساوي مائة قرش!

يعني إيه؟ لم أفهم في ذلك الوقت. ولكن ظللت أحفظ هذه العبارات عشرات السنين.

صفر من عشرة!

سمعت صوت أبي فمسحت الدموع وتظاهرت بأن أُصْبعي دخل في عيني.. ولم تنطل هذه الحيلة على والدي، فأجلسني على ركبته وقال لي: أنت لا تكذب، فماذا حدث؟

وغضب أبي. ولكنه لم يقل شيئًا. وإنما قال لي: أنت تذهب إلى ماما.. وقل لها..

وبكيت وغيرت ملابسي. وأركبني والدي أمامه على الحصان. وذهبنا إلى المدرسة. وانفتح باب المدرسة ودخلت راكبًا الحصان ونزل أبي وأنزلني. واتجهت معه إلى مكتب ناظر المدرسة ورأيت الناظر لأول مرة. وفزعت عندما سأل أبي عن مدرس اللغة العربية. وجاء المدرس. وسأله أبي غاضبًا: هل تحفظ البردة النبوية؟

فقال: لا..

قال أبي: ابني يحفظها.. قل: أمن تذكر جيران بذي سلم..

وعاد أبي يسأل المدرس: هل تحفظ قصيدة بانت سعاد..

–لا...

-ابني يحفظها قل: بانت سعاد فقلبي اليوم؟؟..

-هل تحفظ «نهج البردة»..

-لا..

-قل يا أنيس: ريم على القاع بين البان والعلم.. قل الهمزية للبوصيري كيف ترقى رقيك الأنبياء.. وهل أنت قد حفظت القرآن.

-قال: لا..

-قال ابني حفظ القرآن واحتفلنا في العام الماضي بذلك..

فقال مدرس اللغة العربية الشيخ إبراهيم الدخميسي: آسف لم أكن أعلم كل ذلك..

ثم تقدم يعتذر لي ويقبل رأسي..

أما الذي حدث فهو أن الشيخ قد طلب منا أن نكتب موضوعًا عن الخير والرحمة؛ فكتبت وحشرت أبياتًا من الشعر وآيات من القرآن، فظن الشيخ إبراهيم أنني غششت هذا الموضوع من أحد الكتب.. ولذلك أعطاني صفرًا من عشرة!

كلنا بنحبك نهلة!

في فندق بلودان في سورية فوجئت بوجود الموسيقار محمد عبد الوهاب وزوجته السيدة نهلة القدسي.. أما زوجته الأولى فكانت السيدة إقبال نصار. وكلتاهما صديقة عزيزة.

وكانت إذاعة إسرائيل قد أذاعت حديثًا شخصيًا جدًا بين عبد الوهاب وعروسه. وفي ذلك الوقت كان من الممكن أن تتداخل خطوط التليفونات مع خطوط الإذاعة. حدث في مصر ويحدث في أي مكان. والتقيت عبد الوهاب في الطريق إلى المطعم لتناول طعام الإفطار. ووقف عبد الوهاب. ووجدت صينية على إحدى المناضد.. وصينية أخرى أعطاني إياها. وقال: لحظة حتى تجيء نهلة. وجاءت نهلة القدسي. وقال عبد الوهاب: ياالله نزف نهلة.

وأمسك الصينية وراح يدق موسيقى: واتمخطري ياحلوة يا زينة.

وفعلت مثله.. المنظر هكذا: عبد الوهاب وأنا وراءه ونهلة القدسي أمامنا تضحك من هذا الموقف الهزلي.. والناس يتفرجون على الموسيقار الكبير في أحد المواقف الكوميدية ويضحكون أيضًا.

وفجأة وجدت عبد الوهاب يغني: كلنا بنحبك نهلة.. كلنا بنحبك نهلة..

ومن هذا اللحن البسيط قفز عبد الوهاب إلى أغنية: كلنا بنحبك ناصر.. كلنا بنحبك ناصر..

وكان نشيده الشهير عن جمال عبد الناصر.. هذا اللحن البسيط قد ارتجله عبد الوهاب فورًا أو استخرجه أو استنبطه من زفة عروسه.. ولم نكد نصل إلى مصر حتى كان هذا اللحن قد رددته كل الإذاعات المصرية والعربية!

وأقسمت ألا أعود!

كنت مطيعًا لوالدتي وديعًا.. وكنت أيضًا ألعب وأحب أن أعرف وأن أجرب وكانت هذه هي مشكلتي الكبرى في طفولتي ولم تجد أمي بدًا من ضربي.. وأسرفت في ذلك!

ففي يوم عدت إلى البيت وقد لسعني النحل في ذراعي. والسبب أنني وضعت الكمامة فوق دماغي واقتربت واقتربت أكثر ونسيت أن أغطي ذراعي. فهاجمني النحل ورحت أصرخ. وأدركوني. وأعادوني إلى البيت. ولم تجد أمي سببًا آخر لتأديبي، فقد تولي النحل هذه المهمة.

وأخرجوني مرة أخرى من بين الأنقاض؛ فقد حاولت أن أمسك ثعبانًا كما يفعل والدي. وكان والدي يجري وراء الثعبان ويمسكه من ذيله بطريقة خاطئة. وكان لابد أن تعاقبني أمي بالضرب أولاً وبالحرمان من اللعب.

أما اليوم الذي لا أنساه فقد عدت إلى البيت والدماء تسيل من رأسي ومن جبهتي. ثم رحت أبكي. وسألتني أمي. ولم تفهم.. فجاء الأطفال يشرحون لها ويؤكدون أنهم حاولوا منعي ولكنني كابرت مرة بعد

مرة. ورغم الدماء التي تنزف؛ فإنني لم أتوقف عن المحاولة. وسارع الأطفال بحشر كميات من تراب الفرن المحترق ووضعوه فوق الجرح وفي داخله.. ثم غسلت وجهي بماء الترعة – تراب في جرح، وماء الترعة لغسل الجرح. إنها معالجة بدائية سامة وقاتلة أيضًا!

أما الذي كنت أحاوله فقد رأيت الثعلب يصعد النخلة بظهره وينظر ناحيتنا.. ولما تكاثرنا حوله قفز من النخلة وهرب، وجاء دوري لكي أحاول مثله.. وكنت أسقط على الأرض.. وحاولت وسقطت فوق دماغي.. ثم طلبت من الأطفال أن يساعدوني وسقطت ونزفت دمًا..

وكان عقابي ألا أخرج من البيت وألا ألعب مع أحد وألا يزورني أحد أسبوعًا، ورفضت أمي كل وساطة. ولم تأبه ببكائي ودموعي.. وكل محاولاتي في الاعتذار وألا أعود وحلفت ويدي على المصحف!

بتلوموني ليه؟!

ضبطت نفسي أغني في التليفون: بتلوموني ليه. وكنت أغنيها تلقائيًا. وفي يوم تساءلت: لكن لماذا؟ لماذا أنا أغني هذه الأغنية الوحيدة.. ولماذا لم يسألني أحد عن السبب صحيح الأغنية حلوة ويصوت عبد الحليم حافظ أجمل..

وانشغلت بهذا السلوك الغريب وفتشت في ذاكرتي عن السبب. ووجدت السبب وأدهشني أن أنساق وراء مشاعر لا مبرر لها.. فهذه الأغنية تحمل لي مشكلة أو تزيد إقناعي بشيء ما.

وعرفت السبب فعندما ذهبت إلى محمد عبد الوهاب مع عبد الحليم حافظ والموسيقار كمال الطويل والشاعر الغنائي مأمون الشناوي لكي يسمع محمد عبد الوهاب صوتي. فإن اقتنع تركت التدريس في الجامعة والصحافة وتفرغت للغناء– وهي حكاية رويتها واضطررت إلى تكرارها في الإذاعة والتلفزيون والسبب أنها غريبة أو مستغربة وأن محمد عبد الوهاب قد تناولها وحكى ما حدث.

وفي يوم دعاني محمد عبد الوهاب إلى الغداء في بيته.. ولم تكن السيدة حرمه في البيت. وكان علينا أن نستخرج الطعام من الثلاجة.

وبعد أن فرغنا من الطعام أمسك عبد الوهاب العود وقال: أريد أن أسمعك الآن.. حتغني إيه؟

وكانت مفاجأة وقلت: أغني أنا هويت لسيد درويش أو خايف أقول اللي في قلبي من تلحينك أو..

- الله..

- ولكن سوف أغني من تلحينك بتلوموني ليه..

وواتتني الشجاعة وغنيت وعبد الوهاب يقول: الله.. حلو قوي.. الله..

وأفسد هذا الإطراء من الموسيقار الكبير أن عبد الحليم حافظ قال لي: خد بالك، إن عبد الوهاب مجامل.. ولا مؤاخذه: لو نهق حمار لقال له عبد الوهاب : أعد!

ولم أكن حمارًا ولا كان صوتي نهيقًا. وإنما غنيت لأنني أريد.. وأنني أغني لنفسي.. ومن يومها وأنا أغني لأي واحد. ولم يكن في نيتي أن أغني لمصر كلها واحدًا واحدًا.. وإنما كان غنائي نوعًا من رد الاعتبار. وحمدت الله أنني لم أشتغل بالغناء؛ لأنني أتذوق الصوت الجميل. ولو كنت مطربًا لأحببت هذا وكرهت ذاك ودخلت في معارك ظالمة لكل من ينافسني من الرجال والنساء!

وليس من حق أحد أن يلومني ولا أن أقول له: بتلومني ليه!

هي بكت وبكيت أيضًا

إنها محاضرة في جامعة جراتس بالنمسا.

لأنها محاضرة جادة فهي في حاجة إلى استعداد وإعداد.. ولابد أن أكتبها وأقرأها. ولابد أن يكون الأداء هادئًا. فالجمهور مختلف والكلام يجب أن يكون علميًا.

وجلست وكتبت ثم أعدت ما كتبت وحاولت أن أحشر نكتة أو قفشة ثم عدلت عن ذلك.. أما الموضوع فهو التسامح أي الاتفاق مع الاختلاف، الأكثرية مع الأغلبية.. بين الأديان.. ووجدتها مناسبة وتحدثت عن طفولتي في المنصورة.. فقد كانت بها جاليات أجنبية. ومدارس للغات: الجالية اليونانية والإيطالية والألمانية وعدد قليل من اليهود المصريين وغير المصريين.

هذه التسميات عرفناها ونحن صغار. ولكن لا نعرف لها أي معنى فهم أجانب ويتكلمون العربية.. وهم أصحاب مطاعم ومحلات للحلويات وتجار أو كنت لا أعرف معنى أن يكون الإنسان إيطاليًا أو يونانيًا.. أو ما هو الفرق بيننا.. إن الأجانب لغتهم العربية مختلفة.. لا ينطقون العين والحاء.. ويس..

وقلت وصفق الحاضرون طويلا.. ولم يمض يوم واحد لم أذكر: مخالي وجورج وجرجس وكوهين.. ولم أدرك أن هناك فرقًا بيننا. ولذلك لم أسأل عن معنى يهودي ومسيحي.

وكانت أمي تزور أم بطرس وتزورها أم ليفي. وأحيانًا أتغدى هنا أو أتعشى هناك ويجيء الأصدقاء من الأطفال إلى بيتنا يأكلون أو نذاكر معًا وبعضهم ينام عندنا.

ولكن فوجئت أن جاء أحد أقاربي ووجدنا نلعب في الشارع وقال: سمعتك تقول يا كوهين ويا ميشيل.. ألا تعرف أنهم يهود؟

ولم أفهم أين الغلط.. وظهرت الدهشة على وجهي ولم أفهم.. ولم أتوقف عن اللعب وعندما عدت إلى البيت سألت أمي واندهشت هي أيضًا.

ولما جاء أبي. وحكيت له فقال: إنهم أصدقاؤك؟ قلت: نعم.. وفي اليوم التالي أخذني والدي ومررنا بإحدي الكنائس وقال: نحن لنا جامع وهم لهم كنيسة.. وكلنا نعبد إلهًا واحدًا..وبعد مشوار طويل وجدنا معبدًا يهوديًا. وقال: وهذا معبد اليهود. أما هذا الدوي في أذني فلم يكن حرجًا في مواجهة جمهور نمساوي كبير. لم تكن المواجهة وإنما كان التصفيق.. أما أنا فقد كانت عندي مشكلة وهي أنني نسيت نظارة القراءة. وكان النص الإنجليزي مع المترجمة النمساوية.. وكنت أرتجل. ولكن بسرعة عالجت الموقف المفاجئ. وأمسكت الأوراق وتظاهرت بأنني أقرأ بصعوبة..

أما دهشتي وأجمل مفاجأة تلقيتها أن تقدمت الصفوف سيدة عجوز قصيرة وطلبت أن أنحني لكي تقول شيئًا في أذني. وفوجئت بأنها تقبلني وقالت: أنا مدام إيزاك كوهين التي كانت تسكن إلى جوارنا في المنصورة. وسألتني عن أمي فلما عرفت أنها توفيت من عشرين عامًا بكت.. وبكيت أنا أيضًا!

الحذاء في الشبكة!

كنت أتضايق –وما زلت– إذا ذهبت إلى الترزي أو محلات الأحذية فلابد أن أقيس الجاكت والبنطلون والحذاء.. ثم إنني لا أريد شيئًا من ذلك، فما عندي يكفي. ولكن أبي يريد أن يكافئني لأنني نجحت وكان ترتيبي الأول، فكنت أقول إنني لست في حاجة إلى ذلك.. والحقيقة أنني في حاجة ولكنني أضيق وأخجل.

وكنت أرتدي ملابس إخوتي الأكبر مني، وكانت أمي تتولى تقصيرها حتى تكون مناسبة، ولا أجد في ذلك حرجًا.. وفي نفس الوقت لا أنظر إلى زملائي وماذا يرتدون، وكيف أنهم يتأنقون بالطربوش والكرافتة – ولا أذكر أنني وضعتها إلا نادرًا حتى اليوم.

ولم أسأل نفسي لماذا هم كذلك، وأنا على ما أنا عليه. فأنا مشغول تمامًا بأن أكون الأول – وقد كنت في جميع مراحل التعليم حتى الليسانس. ودهشتي لا تنتهي عندما أجد زملائي يحكون مغامرات مع البنات.. ولا أعرف معنى مغامرة.

ولا أعرف كيف تنتقل وتتطور العلاقة من نظرة. فقد لاحظت البنات ينظرن لي ويقلن كلامًا ويضحكن. ولم أعرف.. ولا جرؤت أن أسأل أمي.. ثم إنهم يدخنون أيضًا..

وفي يوم وجدت التلاميذ يضحكون ويتصارعون؛ واحد قال: إيه ده إنت لابس مركب!

وأشار إلى حذائي أنه كبير بصورة واضحة. ولكني لم ألاحظ ذلك. إنه حذاء أخي الأكبر. وتضايقت بعض الوقت.. ولكن لم أخلعه.

فقط يوم مباراة كرة القدم بين مدرستنا ومدرسة أخرى ولا أعرف موقعي في الفريق.. ولا أظن أن أحدًا منا يعرف كيف يلعب ويسدد الكرة نحو المرمى. وجاءتني الكرة وضربتها.

وضحك الناس جميعًا؛ فقد انخلع حذائي.. ومن يومها لم أرتد هذه الجزمة ولا أي شيء لإخوتي الأكبر سنًّا.. وإن كانت كل ضربات كرة القدم بالحذاء.. والغريب أن الحذاء هو الذي دخل الشبكة!

جوائز في كفي والتيجان!

كنت أجلس في مطعم جاتولا في بورسعيد عندما جاء ماسح الأحذية.. وقال: وأنا أقرأ الكف أيضًا. مقابل عشرة قروش.

وأعطيته يدي. ومسحها بكفه. ثم اقترب وقرأ الخطوط وما بين الخطوط. وسألني: أنت بحار؟ قلت: لا. سأل: أنت طيار؟ قلت: لا.

وقال: أراك تركب البحر والطائرات ساعات طويلة.. قريبًا جدًّا!

وبعدها بشهر قمت برحلتي حول العالم لمدة ستة أشهر!

وأعطيت يدي لزوجة رئيس إسرائيل حاييم هرتسوج في مدينة أسوان – وكان قبل ذلك مندوبًا لإسرائيل في الأمم المتحدة. قالت لي: سوف تحصل على جائزة كبرى بعد أيام.. وجائزة أخرى تجيء من بعيد ومن مكان لا يخطر على بالك.. مبروك..

وبعد أسبوع حصلت على جائزة الدولة التقديرية.. وبعدها بأيام تلقيت مكالمة من الإعلامي الكبير حمدي الكنيسي وكان مستشارًا في سفارتنا في الهند يخبرني بأن البرلمان الهندي قد منحني جائزة الإبداع لدول العالم الثالث – أول جائزة تعطى لكاتب من أبناء العالم الثالث – ثم سألني الصديق عمرو موسى وكان وقتها سفيرًا لمصر

في الهند إن كان يتسلمها نيابة عني أو أتسلمها أنا. وتسملها نيابة عني.. ودهشتي لا تنتهي كيف أن كل هذه المعلومات مكتوبة على كفي؟!

وأول من هنأني بجائزة مبارك في الآداب كان الرئيس حسني مبارك قال لي: مبروك.. قلت: الله يبارك فيك يا ريس.. ولكن مع الأسف لا نستطيع أن نمنحك هذه الجائزة.

فظهرت الدهشة المفاجئة على وجه الرئيس فقلت له: إن صاحب جائزة نوبل لم يحصل عليها!

وفي فنجان من البن الغامق قدمته لمدام كراجيان الأرمينية في مصر الجديدة قالت لي: عندك حفلة وشهادة محترمة.. سوف تحصل على جائزة كبرى!

وضحكت فلا يوجد لي جوائز ولا شهادات وشكرتها على هذه البشرى. وبعد شهر قررت جامعة المنصورة منحي الدكتوراه الفخرية في احتفال جامعي كبير وقور!

أعطني كفك ولا تخف!

قارئ الكف محمد جعفر نظر إلى كفي وهز رأسه ومطَّ شفتيه أسفًا على ما سوف يصيبني بعد ستة أشهر.. بل لن يجيء العام الجديد حتى أكون مفصولا من عملي. وأطبق يدي وأطبق يده عليها وقال: ربنا يتولاك برحمته..

وبعد ستة أشهر ويوم رأس السنة قرر الرئيس عبد الناصر فَصْلي من عملي. فقد كتبت مقالا رأى فيه ما لم أر.. وأن فيه هجومًا عنيفًا عليه!

وذهبت مع العراف محمد جعفر إلى الأستاذ الكبير مصطفى أمين. وقلَّب في كف مصطفى أمين.. ثم أطبقه بسرعة وقال: الله يخفف عنك وعن أخيك التوءم علي أمين.. أنا أرى أنكما ستعيشان منفصلين حتى الموت!

فدخل مصطفى أمين السجن تسع سنوات. وعلي أمين ظل يتنقل بين بيروت ولندن.. ولما عاد علي أمين إلى مصر دخل المستشفى.. ومات فيها.. وعاش مصطفى أمين وحده بعد أن فقد نصفه الطيب!

وأول من قال لي بعد سنتين من التسكع في شوارع القاهرة أنني سوف أعود إلى عملي كانت الفنانة برلنتي عبد الحميد. أما كيف عرفت فلم أعرف!

وشيء غريب جدًّا عندما راح محمد جعفر يقلب في كف زوجتي. أطبقه بسرعة قائلا: هذه هي المرة الثانية في كل حياتي.. فأنا لا أستطيع أن أقرأ هذه الكف!

وفي جنازة والد الموسيقار كمال الطويل اقترب محمد جعفر من مصطفى أمين وقال له: أعطني كفك..

وبعد لحظات قال له: مبروك.. سوف تلتقي بالرئيس عبد الناصر.. أو إنك التقيت به وسوف تعودون جميعًا إلى أماكنكم.. مصطفى أمين وعلي أمين وأنيس منصور.

وكان مصطفى أمين قد قابل عبد الناصر ووعده بعودتنا جميعًا إلى عملنا في أخبار اليوم – وكنا وقتها نعمل في مؤسسة دار الهلال.

وظهر مصطفى أمين في التليفزيون وحكى ما قاله محمد جعفر. وتصادف أن رأى الرئيس عبد الناصر التليفزيون. فتضايق وبدلا من عودتنا بعد شهر، أعادنا بعد ستة أشهر!

هذه هي النكتة!

المخرج والممثل الظريف والمثقف سيد بدير طلب مني مسرحية.. وقدمت له مسرحية (الأحياء المجاورة) وهي مسرحية صعبة.. فهي بوليسية كوميدية من ثلاثة فصول، قام ببطولتها حمدي غيث وسناء جميل. ولم يختف أحدهما عن المسرح، ولم يظهر أحد غيرهما. ولكن كانا ينتظران أن يجيء أحد، وكذلك الجمهور. ولم يظهر أحد..

ويوم الافتتاح بينما أنا واقف في الكواليس جذبني حمدي غيث بالقوة لأظهر معهما، وقاومت، ورجوته ولم أظهر، فالعرض المسرحي من شأن المخرج جلال الشرقاوي والبطلين.. أما دوري فقد انتهى عند كتابة النص..

واختلفت في ذلك مع يوسف إدريس، فمن رأيه أننا – نحن المؤلفين – يجب أن نستمتع برؤية الناس لنا.. رؤية الامتنان على وجوههم أيضًا. فهذه هي المكافأة الحقيقية، أما الذي يقوله النقاد فلا قيمة له.. ولذلك كان يوسف إدريس حريصًا على أن يستقبل المشاهدين وأن يودعهم كل ليلة، ويتلقى الثناء المتجدد مباشرة وقال لي: هذا هو الاحتفال والاحتفاء الحقيقي بالمؤلف!

وأول يوم ذهبت لافتتاح مسرحيتي (مين قتل مين؟) بطولة أمين الهنيدي وعقيلة راتب، جاءت السيدة تحية حرم الرئيس عبد الناصر وأدهشني وأسعدني ذلك.. ولم يكد يرتفع الستار حتى انقطع التيار الكهربائي. فانقلبت الدنيا وحدث هرج ومرج وجاء وزير الداخلية شعراوي جمعة.. وعاد التيار الكهربائي بعد دقائق. وقيل لي إن حرم الرئيس ضحكت كثيرًا.. وهي تحية كبيرة للممثلين..

وفي اليوم التالي فوجئت بالوزير شعراوي جمعة وكان صديقًا للوزيرين التوءمين توفيق عبد الفتاح وزكريا عبد الفتاح وهما خالا زوجتي قال لهما: إنني أغضبته في هذه المسرحية. وتساءلت لماذا؟ فقال لأن البطل هنيدي ظهر وقد أعطى لأحد العساكر سيجارة وعندما أخذ السيجارة صرخ هنيدي قائلاً: رشوة!

وقال شعراوي جمعة: هل يصح في عهدي أن يتهم أحد رجال الأمن بالرشوة.. وفي عهدي أنا؟!!

وقلت للوزير شعراوي: إن الرشوة ليست سيجارة. الرشوة خرطوشة سجائر يا سيادة الوزير.. ثم إنها نكتة!

ومضى غاضبًا. ولم ير في ذلك نكتة!

وعندما أخبرت المخرج والممثلين قالوا: بل موقفه هذا هو النكتة!

وهمست برغبتي في الزواج!

ما زلت حتى اليوم أذكرها: إنها أخت غير شقيقة. وكم تمنيت لو أن أختي هذه تعيش حتى اليوم.. وأنا أتخيلها الآن وأنا أكتب.. سمراء.. طولها.. ملامحها.. جميلة شابة. أحببتها.. ولسبب لم أجرؤ أن أسأل أمي عنه: لماذا لا تحب أمي أن تكون لي علاقة بها.. أسأل عنها.. أجلس إليها.. أنتظرها تحت الشباك وأمام البيت.. وأحمل لها السكر والفاكهة.. فإذا قابلتها أمسكت يدها وسرنا معًا. وكان الناس يضحكون إذا رأونا جالسين متجاورين ولا نتكلم. وكانوا يضحكون: عريس وعروسة – كنت في السابعة وهي في التاسعة.

وكنت أذهب سرًا للقائها.. وأخفي في جيبي الفاكهة وأحيانًا قطعة من الفطير.. وكانت تنتظر ذلك. ولا أذكر إن كانت تشكرني أو أقبلها.. ولكن أذكر جيدًا أنها كانت تقبلني.. ثم نجلس صامتين.. ولا كلمة منها أو مني..

وفي يوم التف حولنا الناس وراحوا يضحكون: مبروك إنتو جبتوا المولود إمتى؟!

وكان المولود كلبًا صغيرًا. أتت به أختي ووضعته على حجرها.. ولم نكن نضحك. ولكن لا نفهم ماذا يقول الناس وما المعنى وما الغريب في أمرنا.. وفوجئت بأن أمي منعتني نهائيًا من رؤية أختي. ومرضت. وطال مرضي.. ويجيء الطبيب ويفحصني ويسألني.. ويقيس الضغط ودرجة الحرارة ويهز رأسه.. أنه لا شيء. ولكني ممتنع عن الطعام.. وتجيء جدتي وتطلق البخور في كل مكان. وتقول: إنها عين وأصابت الولد..

وأدركت أمي ولم تجد إلا حلاً واحدًا. قالت لي: روح لأختك إنها تسأل عنك!

وقفزت من السرير إلى السلم إلى الشارع.. إليها وكانت في انتظاري. وتعانقنا. وكانت أمي تنظر من النافذة وكذلك جدتي.

وفي يوم كنا نتناول العشاء في بيت جدتي. وكان جدي وجدتي وأخوالي وخالاتي وإخوتي.. همست في أذن أمي.. لتضحك بأعلى صوتها.. وأسعدني أن ضحكت أمي.. فكانت لا تضحك إلا قليلاً ثم قالت: سيبوا ده واسمعوا ده.. أنيس عاوز يجوز أخته.. هاها.. ولأول مرة أعرف أن زواج الأخ من الأخت حرام.. ولم أفهم معنى (الحرام).. لأنني قبل ذلك لا أعرف معنى الزواج!

يرحمها الله، والله إني أذكرها حتى اليوم فقد استقرت عميقًا جدًا في وجداني ووجودي.. وتمنيت لها أن تعيش.. فقد احتجت لها صغيرًا، وزاد احتياجي لها عندما كبرت!

فيلم آخر من صنعي!

لم أقل لأحد أنني ذاهب إلى السينما – لأول مرة.. وقفت أمام باب السينما أنظر يمينًا وشمالاً.. أتظاهر بأنني أعرف المكان وأحاول أن أتحدث إلى الموظفين كأنني أعرفهم. وأبتسم ابتسامًا عامًّا لكل الناس. ولما وجدت بعضهم يشتري اللبان والسوداني فعلت مثلهم. ودخلت وكانت القاعة مظلمة وهناك أضواء على الجانبين وبعيدًا عن عمق القاعة. وكانت كبيرة. وكانت هناك حركة لأشباح تروح وتجيء. وأناس يجلسون وأناس يهمسون ويتضاحكون. وأضيئت الأنوار فظهرت القاعة أصغر مما رأيت في الظلام.. وبدأ عرض لفيلم أو إعلانات عن أفلام سابقة. وبعد ذلك بعد الإعلان عن الفيلم – أول فيلم أراه في حياتي في أول سينما أدخلها رغم أنني أمر أمامها يوميًا لم أفكر لحظة واحدة في دخولها وكان ذلك بعد أن تخرجت في الجامعة..

أما الفيلم فهو (غراميات كارمن) بطولة ريتا هيوارت وجلين فورد.. خرجت من السينما وأنا غير مستوعب تمامًا لما رأيت. رأيت وانبهرت ولكن لم أفهم الفيلم. ولا أعرف المضمون ولا المعنى.. ولو سألني أحد عن هذا الذي شاهدت فلن أجد شيئًا مفيدًا أقوله.. وكان لابد أن أذهب لمشاهدة الفيلم أقل انبهارًا وأكثر تركيزًا. وكتبت عن

هذا الفيلم وعن القصة وقلت كلامًا كثيرًا.. وكأن كنوز المعاني قد انفتحت كانت مغلقة وانتظرت حضوري فكشفت عن أسرارها. أما أسراري فقد جاءت تفسيرًا لكل ما عندي من أفكار فلسفية وجودية. فقد وجدت أن الفيلم مأخوذ عن قصة للأديب الفرنسي ميريميه هي مفتاح الكون. وكان أقرب التفسيرات إلى عقلي: مبادئ الفلسفة الوجودية. ورأيت وحللت واستنتجت وكتبت مرة وكمان مرة ويبدو أن الناس ضاقت بما أكتب فقد نبهني أحد الأصدقاء بأنني أسرف في الكتابة عن الفيلم وفي تفسير كل شيء تفسيرًا فلسفيًا مع أن الفيلم أبسط وأيسر كثيرًا.

وبعد عشرين عامًا اشتريت الفيلم مسجلا على شريط فيديو.. وجلست في مقعد وثير وتراخيت..ودار الفيلم أمامي.. ورأيت وتأملت. ولم أجد الكثير مما كتبت عنه، أما كيف كتبت عن مواقف تخيلتها وعن عبارات لا أعرف من أين أتيت بها.. لقد كان الفيلم مختلفًا تمامًا عن الذي رأيته أول مرة.. فالفيلم الذي رأيته أول مرة كان من خيالي وأضفت إليه ما في نفسي. وضحكت. واندهشت لهذا الخداع النفسي.. فكيف وضعت أنا كلامًا على لسان البطل والبطلة.. كأنه كان من الصعب علي أن أرى وأسمع دون أن أتدخل.. وتدخلت وأضفت وتخيلت وقلت على لساني وليس على لسان الأبطال – غريبة!

ولم تسعدني المفاجأة!

كنت معجبًا بالمستشرق الفرنسي لوي ماسنيون (1883 – 1962)، فقد كان مقررًا علينا أن ندرس كتابه عن (عذاب الحلاج)، وهو تحفة في الصوفية. وكان الأستاذ ماسنيون من الأساتذة الذين يلهمك الثقة به.. فهو رجل جاد.. وهو رجل تعب كثيرًا. وينطبق عليه المثل الإنجليزي الذي يقول: وأنت تقرأ له تشم رائحة القنديل – رائحة المصابيح، التي يعمل على ضوئها ساعات طويلة. وكنا على موعد معه. ولم يكن المكان هو كلية الآداب جامعة القاهرة، وإنما كان يدعونا إلى دير الرهبان (الدومنيكان).. أي الكاثوليك.. وأنا أكثر الناس ترددًا على الدير. حتى ظن بعضهم أنني من الرهبان، وكانت تربطني صداقة قوية بالأب قنواتي والأب بولا نجيب.

وجاء الأستاذ ماسنيون ومن ورائه عدد من الرهبان والراهبات، يتقدم الجميع الأب قنواتي. وكنت أجلس في الصف الأخير.. وقد أعددت ورقي وقلمي وتهيأت تمامًا لأستمع إلى ما أحببت سنوات طويلة.. وقدم الأستاذ ماسنيون. وفوجئت بأنه يتحدث عني وعن مدى حفاوتي بالفلسفة المسيحية، وأن أجدادي من منطقة الألزاس واللورين.. وأدهشني أن يقول ذلك، ثم ما علاقة هذا بما سوف

يحاضرنا فيه.. وفجأة قال: إنما أردت أن أقدم لكم شابًا نذر نفسه للفلسفة والدراسة المقارنة بين الأديان.. وقد أسعدني في إحدى المناقشات وأريده اليوم أن يشرككم بما قدمه لي. وسوف أقرأ لكم صفحات من البحث الذي قدمه وعنوانه: بل هناك فلسفة وجودية مسلمة أيضًا. وقرأ.. وقرأ. وفجأة طلب مني أن أكمل ما جاء في البحث على أن نتناقش فيه بعد ذلك!

هل الذي أصابني دوار؟ أكثر؟ هل هي حيرة وقلق وخوف؟ وبسرعة أصلحت نفسي على نفسي. وقلت، بل أعرف أكثر من كل الحاضرين في الفلسفة الوجودية وفي الفلسفة الألمانية، وأستطيع أن أقول وأن أناقش.

أكذب لو قلت إنني أتذكر الآن بالضبط ماذا قلت.. ولكني حكيت.. وأحسست أن رأسي فوق كتفي.. وأن رأسي في الهواء وأنني بلا جسد.. كأنني مشنوق إلا قليلاً.. أو كأنني روح بلا جسد.. ولا أعرف كم من الوقت مضى.. ولكن جاءني الأستاذ ماسنيون يهنئني وكذلك الأب قنواتي.. وكان الذي يهمني أكثر هو ما قالته مادلينا صديقتي المستحيلة. لقد قالت: تعمقت جدًا في الفلسفة وأسرفت في استخدام الكلمات اليونانية واللاتينية والألمانية، ولا أظن أن كثيرين لم يدركوا تمامًا ما تقول إلا إذا كان في نيتك أن تقول: إن جدتك من أصل ألماني فرنسي.. إن كان هذا المعنى فقد نجحت، لكن للأمانة أنا فهمت تمامًا ما هي الوجودية وبصراحة لم تسعدني المفاجأة. فقد كنت أفضل أن أستعد لها أكثر وأوضح وأيسر.

ولم تنفع بركة البابا!

في أول حياتي الصحفية كانت لي صديقة إيطالية، كيف التقينا كيف مضينا كيف انفصلنا – تلك قصة طويلة. قالت لي إن البابا يوحنا32 من أقاربها.. وهذا صحيح. وداعبتها وقلت لها لقد أغرقني في البركة.. فقد حدث أثناء انعقاد (المجمع المسكوني) – أي العالمي سنة 1963 أن ذهبت لأشهد هذا المؤتمر العالمي، وقد ارتديت ما يشبه مسوح الرهبان.. وتسللت، وسمعت المناقشات حول قضيتين: الأولى أن البابا معصوم من الخطأ.. وقد وافقت الجموع على ذلك. والقضية الثانية أن اليهود أبرياء من دم المسيح.. وأنها إذا كانت غلطة فهي من عشرين قرنًا ويهود اليوم ليسوا مسئولين عن ذلك، ووافقت الجموع.

وفي اليوم التالي ذهب البابا للصلاة يتقدمه الكرادلة الجدد. ووقفت بين المحتشدين، وعلى رأسي طاقية. هذا واجب أن تتغطى الرءوس. والمعنى أن الرأس إذا تغطى أصبح الإنسان أقصر ولو سنتيمترًا احترامًا للبابا.. تمامًا كما ننحني لكي نكون أقصر. وفوجئت بأن يد البابا قد امتدت إلى رأسي وأخذ الطاقية ووضعها على رأسه بعد أن مزقها وأعادها إلى دماغي. وهي صدفة! واستمعت إلى الصلاة بالإيطالية واللاتينية وقال كلامًا جميلاً. ولم أكد أخرج

من الكنيسة (سان بيترو) حتى هجمت السيدات على الطاقية وأخذنها وخطفنها بركة وسعادة لهن!

فلما عرضت صديقتي أن نزور البابا لكي يباركنا، لم أعترض ومن الذي يجرؤ. أما الطريق إلى مكتب البابا فصمت رهيب ولوحات على الجدران وصدى لوقع أقدامنا وهمس.. ولمس.. الصوت يلمس الأذن والعقل والقلب أيضًا. وعرفت بالضبط ما الذي ينبغي أن أعمل.. وكيف أتحرك وكيف أنحني وماذا أقول.. وماذا. ويباركنا البابا هي وأنا.. هي في غاية السعادة وأنا في غاية الدهشة.. ولم أعرف بالضبط ما هي نتائج هذه البركة نفسيًا وعقليًا وفلسفيًا ودينيًا.. وهل هي قادرة على أن تغير رأيي في الزواج فهي تريد أن تتزوج أما أنا فلا. فلا عيب فيها ولكن العيوب قد تجمعت في شخصي.. فهي حلوة ولكن عيبي أنني لست شيئًا بين أهلي.. صحفي مبتدئ وأديب ناشئ ولا أساوي وزني ترابًا بين أعلام بلدي والزواج ليس مؤهلاً علميًا. ولكن يجب أن أكون شيئًا له قيمة وبعد ذلك فليكن ما يكون وقلت للمحبوبة أنا كراكب الطائرة، يطلبون منه أن يطفئ السيجارة، وأن يربط الحزام وألا يتحرك.. لماذا لأن الطائرة صاعدة – وأنا كالطائرة صاعد، ولذلك يجب أن أربط عقلي وقلبي وأمسك نفسي. وحزنت المحبوبة. مندهشة كيف أن بركة بابا الفاتيكان استعصى عليها واحد مسلم مثلي.. وحزنت على هذه التحفة الفنية والأدبية والفلسفية.. ولكني صاعد!

هذه العبارة عبقرية!

كنت أزور مصنع (أورليكون) لقطع سفن الفضاء. وقالوا لي: إذا دخلت هذه القاعة فاحترس يجب أن تتساند إلى الجدران.

لماذا؟ لأن درجة الصوت هنا صفر- لا توجد بها ديسيبل واحد. ولم أفهم. فلم أعرف هذه التجربة من قبل. وأغلقوا الباب ودخلت وترنحت وتساندت إلى الجدران. شيء عجيب وكنت في حاجة إلى تفسير. وجاء التفسير. فقلت لمحدثي أن شاعرًا مصريًا اسمه كامل الشناوي يروي لنا هذه الحكاية قال إنه ذهب للقاء صديق له في أحد المقاهي. فلم يكد يدخل حتى سكتت الأصوات فجأة، فخيل له أن العمارة كلها سوف تسقط.

فإذا بمحدثي يقع على مقعده وهو يقول: الله.. الله.. صاحب هذه العبارة عبقري.. الله كيف اهتدى إلى هذا المعنى الذي لم يسبقه إليه أحد من قبل.. الله ما أروعه! والمعنى أننا لولا هذه الأصوات حولنا لتساقطنا.. فالأصوات عكاز الأذن.. ومن غير الأصوات نسقط ونقع.. تخيل أنت تسبح في حمام للسباحة. وفجأة انسحب الماء كله سوف تسقط في القاع.. افرض أن الطائرة فجأة انسحب الهواء حولها وتحتها وفوقها سوف تتحول إلى قطعة حديد.. فالطائرة تطير بالهواء وعلى الهواء وضد الهواء.. وإننا نسبح في الماء، وعلى الماء، وضد الماء، وبالماء.

وعاد صاحبي يقول: عبقري صاحب العبارة. عبقري.الله!

قلت له إن صديقي المفكر المصري الشيوعي محمود عبد المنعم مراد كان في المعتقل سنوات وقال لي إنه في إحدى الليالي وجد شيئًا غريبًا.. لا صوت لأبواب وسلاسل ولا زعيق للحراس ولا همس للسجناء في الزنازين. فالتفت إلى زميلي في الزنزانة وقلت له: يكونش متنا؟!

وعبد الحليم حافظ يقول للمحبوبة: قوللي حاجه.. أي حاجه.. من قلبك أو من ورا قلبك.. قل بحبك.. قل كرهتك.. بس قوللي أي حاجه!

فالصمت موت.. أقسى من الموت.. أن تقول وأن يقال لك هي الحياة. أما الصمت الرهيب فهو الموت! والفنان الإغريقي الذي أقام تمثالا لفتاة جميلة كاملة الأوصاف قال لها: قوللي حاجه.. أي حاجه! ولكنها لم تنطق. فراح يبكي ليلاً ونهارًا فترفقت به الآلهة.. فجعلوا التمثال ينطق (حسب الأسطورة)، وقال ولا أحد يعرف بالضبط ما الذي قال. ولا لماذا لم يطق الفنان صبرًا على كلمة واحدة قالتها. فمات الفنان.. وبعد موت الفنان قالت الجميلة التي صنعها الفنان: ليتك لم تخلقني في هذا العالم القذر!

عالم قذر! مع أنها لم تعش فيه إلا لحظات. ومع أن الفنان كان يستحق منها أكثر من ذلك. ولكن آلهة الإغريق عاقبت الفنان؛ لأنه ينافسها في الإبداع.. ولأنه توقع من مخلوقته الامتنان – وهو ما لم تجده الآلهة من البشر.. حسدوه على هذه النعمة فأماتوه وأماتونا!

وكان صمت الاثنين أبلغ كلام!

واخترت جميلة الجميلات!

عندما أتذكر ما حدث، فإنني أضحك. كيف أقنعوني أن أكون رئيس لجنة اختيار ملكة الجمال فلا اتفقنا على مقياس الجمال: في الوجه والعينين والسيقان والشعر والعنق والقوام والشفتين والمشية والشخصية.. لم نتفق. ولا كانت عندنا فكرة واضحة عن ذلك. وكل ما حدث هو أن مدير أحد الكباريهات كلمني فوافقت. وكنت وقتها رئيس تحرير مجلة «الجيل» – جيل الشباب– ذهبت إلى القاعة. لا أعرف بقية الأعضاء. وإنما أنا الرئيس وبس. ونودي في الميكروفون عن المتسابقات وتقدمن يتمخطرن في ملابس مختلفة الأشكال والألوان، مع أن أول شروط المسابقات الدولية وحدة الخطوط والتسريحات ولهن حركات قد تدربن عليها قبل أن يظهرن أمام لجنة التحكيم.

وكان المطلوب أن نختار الملكة واثنتين أخريين.. وجاء من يهمس في أذني: إن فلانة هذه قريبة تحية كاريوكا!

فسألت: وإيه يعني؟!

فقال لي: أنت عارف كاريوكا!

ولم أكن أعرف كاريوكا. ولكن لهجة التهديد أحسستها في صوت من جاء يحذرني. أي أن قريبتها إذا لم تكن الأولى فسوف تعتدي على اللجنة بالضرب. إيه ده؟ وجاء من يقول: إن الفتاة السمراء خالتها زوجة السيد محافظ الإسكندرية يعني إيه؟ فقيل لي: يعني يجب مراعاة ذلك!

وتضايقت وفي نفس الوقت أعدت النظر إلى الفتيات وطلبت بأن يتقدمن وأن يذهبن وأن يتمخطرن واخترت واحدة ليست من بين هاتين الاثنتين. والتفت إلى اللجنة أسألهم فقالوا ما معناه: الأمر أمركم.

واهتديت إلى حل لهذا الإشكال وطلبت المتسابقات. وقررت أن أسألهن في المعلومات العامة في السياسة والأدب والفن وتعمدت القسوة على قريبة كاريوكا وقريبة زوجة المحافظ ولسوء حظهما فإن معلوماتهما تبعث على الخجل وتلفت حولي كأنني أريد أن أخلق رأيًا عامًّا يبرر رفضي للاثنتين معًا وأختار واحدة غيرهما. واخترت وأعلنوا في الميكروفون عن ملكة الجمال الشقراء الإيطالية الأم والمصرية الأب. أما الملكة فإنها قفزت من فوق المسرح وقبلتني في عاصفة من التصفيق والصفير!

ولما جاءني أحدهم يقول: تليفون عاوزك؟

لم أشأ أن أرد على كاريوكا أو محافظ الإسكندرية!

نصف الناس أعداء لمن حكم - هذا إن عدل!

ومن عشر سنوات رأست لجنة التحكيم لاختيار أحسن الأفلام، وكان عدد الأفلام كبيرًا. وفي أول جلسة استبعدت فيلما بطولة نور الشريف لأن إحدى الممثلات أهانت مصر. ولا رجوع في هذا القرار. وحتى لا تتسرب أخبار المناقشات في داخل اللجنة كان لا بد أن نقيم في أحد الفنادق حتى لا نتصل بأحد ولا يتصل بنا أحد؟! وصدقنا أن هذا ممكن. وفي أول اجتماع أقسمنا على السرية حتى لا يغضب أحد النجوم من الرجال والنساء. وأنا أعلم مقدمًا أن العدل صعب. فالناس يحبون العدل مظلومين ويكرهونه ظالمين. والشاعر القديم قال: نصف الناس أعداء لمن حكم - هذا إن عدل!

ودارت مناقشات في اللجنة، وكل الأعضاء لهم صلات وعلاقات ومصالح إلا أنا. ومن أجل ذلك جئت رئيسًا للجنة محاولاً قدر الإمكان أن يتحقق العدل بيننا. وفي البداية وضعنا شروطًا لنجاح الأفلام: القصة والحوار والسيناريو والإخراج والإضاءة والموسيقى والصوت وكذلك شروط الدور الثاني في الفيلم. واتفقنا على كل شيء. ولم نعد نتناقش وإنما اتفقنا على الدرجات. وكنت أسأل عن الرأي والدرجة وكان دوري ترجيح إحدى الكفتين إذا تعادلت الدرجات.

وفي يوم الاحتفال أعلنت النتيجة. وتعالى التصفيق. ولكن الذين لم يفوزوا لم نسمع لهم صوتًا. ولم أسمع احتجاجًا على شخصي من أي أحد. وإنما كان الاحتجاج على فلان وعلان.. واندهشت كيف عرف الناس المواقف السرية لأعضاء لجنة التحكيم.. وفي يوم التقيت الفنانة ليلى علوي ذهبت تشكو لوزير الثقافة من قرار اللجنة ومن الموقف المتعنت لفلان عضو اللجنة.. وأدهشني جدًّا أن كل تفاصيل المناقشات كانت عندها أولا بأول.. وشكرتني على موقفي. فأدهشني أكثر!

ولما عرض وزير الثقافة فاروق حسني أن أرأس لجنة تحكيم أخرى اعتذرت. فمن الصعب أن تكون قاضيًا وإذا كنت قاضيًا أن تكون عادلاً وإذا كنت عادلاً فكيف أقضي بين الجمال والمال؟!

وكانت البداية عربة حنطور!

كانت البداية لواحد ملحد متعصب أو كان فوضويًا، ففي سنة 1920 ذهب المواطن الأمريكي الإيطالي الأصل ماريوبودا بعربة الحنطور ووقف في شارع البورصة والبنوك في نيويورك حيث يخرج ألوف الموظفين.

وكانت في العربة التي يجرها حصان كمية ضخمة من المواد المتفجرة فأشعلها وامتلأت الدنيا نارًا ودخانًا وشظايا وضحايا. ووزع منشورات غريبة تقول: أطلقوا سراح السجناء وإلا قضيت عليكم جميعًا. أما السجناء فهم اثنان من الفوضويين المتهمين بالسطو على مصنع للأحذية. ثم هرب إلى إيطاليا.. أما السجناء فقد نفذ فيهم الإعدام بعد سبع سنوات!

وكرر اليهود في سنة 1947 نفس التجربة المدمرة، فقامت جماعة (شتيرن) بتفجير عربة أمام مركز للشرطة العسكرية البريطانية في فلسطين فقتلوا أربعة وجرحوا 140..

وفي سنة 1970 ظهرت في سايجون في الأيام الأخيرة للحكم الفرنسي واستخدموا السيارات والعربات والدراجات المفخخة.

وكذلك المافيا الإيطالية في صقلية..

وفي لبنان سنة 1982 ذهب المواطن أحمد قصير إلى مركز للعسكريين اليهود فقتل 76 جنديًا.

أما اليابانيون الانتحاريون (كاميكاز) فهم يركبون الطوربيد ويتوجهون نحو الهدف ويموتون به وفيه.. وكانوا يفضلون ذلك برًا وبحرًا وجوًا. فهم أول من جعل الإنسان قنبلة يقوم القتيل بتسديدها وضبطها نحو الهدف ليموت بها وفيها!

وهو ما يفعله الفلسطينيون ضد إسرائيل ويفعله المتطرفون في بغداد ضد أنفسهم وضد الأمريكان.

وكلهم متطرفون في إيمانهم وعذابهم أيضًا. وكلهم قد هانت عليهم الدنيا. وقرروا أن يتركوها. وقرروا أن يحققوا هدفًا داميًا. أما الملحدون فهو الغضب القاتل. وأما الإرهابي فهو غاضب قتيل لهم ولغيرهم. وأما المتهوسون فيرون أنهم إنما يدقون أبواب الجنة بعنف.

لقد بدأ الانتحار بعربة حنطور وصار طوربيدا وصاروخًا وطائرات ناطحة لناطحات السحاب!

قال: الإعلام المصري قد خدعنا

كنا ثلاثة في واشنطن في ندوة واحدة: توماس فريدمان الأمريكي، وزئيف شيف الإسرائيلي. ومطلوب منا أن نتحدث عن دور الإعلام أثناء الحرب. كيف كان الإعلام، وكيف استطاع وكيف عجز.. وما العقبات التي واجهها الصحفيون أو الكتاب.

وكنت الوحيد الذي شكا من الرقابة في مصر وفي بعض البلاد العربية، وكيف أن لقاءاتي في التليفزيون يمسحونها وإذا ذكر أحد اسمي رأيت شفاها تتحرك دون صوت..

وكيف كان الإعلام المصري أثناء حرب سنة1967وكيف حولنا الهزائم إلى نصر إذاعي. أمر سهل جدًا.. ولكن آثاره وخيمة على الملايين فالدولة تكذب وتنصب وتفبرك. ولا يخجلها ذلك وقد تنافس الإعلام والكاميرات والميكروفونات في هذا المضمار. والنتيجة صورة خرافية لما حدث. والخسارة علينا. فقد خسرنا أنفسنا وكرامتنا ولم يعد أحد يصدقنا، لأننا لا نصدق أنفسنا.

أما في الإعداد والاستعداد لحرب 1973، فقد كان الصدق والأمانة، خطوة بخطوة. فلم يستطع السادات أن يكذب ويقول أسقطنا في اليوم الأول ألف طائرة، ولا أن قطارًا محملاً بالأسرى في طريقه إلى

القاهرة.. ولا ذهب المواطنون في تعذيب أنفسهم فاخترعوا قصة صدقوها وهي أن الطائرات التي ضربتنا كانت تقودها سيدات.. وإمعانًا في تحقير أنفسنا قلنا إن المقاتلات كن حوامل؟!

إن أمريكا عندما أغرقت اليابان أسطولها في هاواي أعلنت ذلك وألقت قنابلها الذرية. فلم تتستر على فشلها بل أعلنته كما أعلنت انتصارها النووي أيضًا!

وإذا كانت سنة1967درسًا في الكذب، فحرب سنة 1973كانت درسًا في الصدق.

وكان من رأي موشى ديان أنه يستطيع أن يهزمنا بنفس الطريقة، لأننا لا نتعلم من أخطائنا. وحضرت لقاء بين ديان والسادات، قال ديان: لا أجد حرجًا في أن أعترف بأنك خدعتنا ووسائل إعلامك قد ضللت كل أجهزة المخابرات!

اخترت لها اسم: تاييس!

لي صديق تزوج إيطالية حسناء حملت فجلسنا حولها نختار للمولود اسمًا إن كان ولدا فاختار أبوه: محمد أو عبد الرحمن. ولكن ظهر الضيق على وجه الزوجة فسألناها عن اختيارها فقالت: ألفونسو.. جاكمو.. فالنتينو أورلاندو.. واندهشنا كيف يكون ألفونسو محمد أو أورلاندو محمد.. ولكن هذا هو إحساسها.

ونحن نختار أيضًا الأسماء التي لها شكل ووقع موسيقي فنقول: يسرا بالألف وليست بالياء.. ونختار رنا.. مع أن رنا فعل ماض والمضارع يرنو.. وعشيقة رئيس البنك الدولي صاحبة الفضيحة المجلجلة عربية الأصل واسمها: شها. وهو فعل وليس اسمًا. فنقول شهيت بكسر الهاء وشهاه ويشهاه وشهوة. واشتهاء وتشهاه وأشهاني أي أعطاني ما أشتهي.

وأعجبني اسم أدريانا وكانت بطلة رواية (فتاة من روما) لصديقي الأديب الكبير ألبرتو مورافيا. ثم التقيت بصديقة إيطالية وقلت لها: أنت أدريانا. وغضبت ومعها حق فلم أكن قد قرأت الرواية. وأدريانا غانية من مخلفات الحرب العالمية الثانية! واعتذرت وكان جهلي وغروري وعنادي سببًا كافيًا لقطيعة طويلة!

ونسيت مأساة الاسم وجلسنا نختار اسما لمولودة صديق لنا.. الزوجة إيرانية.. وسمعنا أسماء موسيقية لا يتغير شكلها في اللغات الأوروبية.. واختاروا أسماء الزهور. ولكن الاسم الذي اخترته أعجب الزوجة الإيرانية وهو: تاييس وقلت إنها فتاة ليل بالإسكندرية تاب الله عليها فصارت راهبة –هكذا تقول رواية أناتول فرانس. وصارت أوبرا للموسيقار ماسنيه.. وبعد سنوات قابلت صديقي الذي هو أبو (تاييس) فقال: لقد أوقعتنا في مطب سياسي لا يخطر على بال..

فتاييس هذه كانت عشيقة الإسكندر الأكبر وهي التي أشارت عليه بأن يحرق العاصمة الفارسية القديمة فأحرقها وأهلها.. وكان ذلك انتقاما من إحراق الفرس لمعبد الإلهة أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد.. وقلت: إنها كانت عشيقة الإسكندر ثم ملكة بعد ذلك فهي جميلة وهي قوية وهي شخصية فذة. وقال لي: اذهب واقنعها أنت. وذهبت. ولم تقتنع!

الذين يجدون حلا

هناك وجه للشبه بين الرئيس الروسي الراحل يلتسين والأميرة ديانا. لا هو جميل لطيف ظريف مغلوب على أمره مثلها، ولا هي سكيرة عربيدة مقطوعة الأصابع متآمرة مثله. وإنما كل منهما قد وجد نفسه في موقف صعب. أما السلوك فكان غريبًا ولكنه السلوك الوحيد الممكن..

فعندما قررت الملكة إليزابيث أن ترى الأسرة المالكة المولود الأول لابنها ولي العهد من الأميرة ديانا، كان لابد أن تذهب الأسرة ليروا ملك المستقبل. وجاء أفراد الأسرة وقبلوا الطفل، وبدأ الطفل كأي طفل يبكي، فما كان من الأميرة إلا أن وضعت أصبعها في فمه فراح يرضع وسكت الطفل، ولكن أفراد الأسرة المالكة بدءوا يتهامسون ويتغامزون، فهذا الذي فعلته الأميرة شيء شعبي.. ولولا أنها شعبية ما فعلت ذلك!

مع أنها من عائلة أرستقراطية أكثر عراقة من الأسرة المالكة الوافدة من ألمانيا. وأسرة ديانا إنجليزية رفيعة المستوى من مئات السنين!

وما فعلته الأميرة ديانا تفعله اليوم وغدًا كل الأمهات حلاً سريعًا لهذا الموقف الإنساني العادي..

أما الذي فعله الرئيس يلتسين فقد جاء في مذكراته أنه روى كيف كان عليه أن يحمل طفلاً صغيرًا وأن يذهب به من موسكو إلى لينتجراد.. وفي الليل الطويل بكى الطفل، ولم يفلح في إسكاته ولا استطاع أحد من ركاب القطار أن يفعل فما كان من يلتسين إلا أن فتح قميصه وأخرج ثديه ووضعه في فم الطفل. وسكت الطفل وكما أن أصابع ديانا لا تدر لبنًا، فكذلك ثدي يلتسين. ولكنه الحل الممكن في لحظة حرجة!

ويحكي الكاتب الأمريكي امرسون أن إحدى البقرات في مزرعته قد ولدت وحاول أن يستخرج الوليد لكي يتفرج عليه. ولكنه قاوم.. فاستعان امرسون بأولاده لكي يستدرجوا العجل إلى خارج الحظيرة ففشلوا جميعًا، ورأى أن يستعين بالخادمة وجاءت الخادمة ووضعت أصابعها في فم العجل الصغير. وراح يرضع أصابعها وخرج. ووقف امرسون المفكر الكبير مبهورًا وأشار إلى الكتب حوله قائلاً: كل هذه الكتب لم تعلمني كيف أخرج عجلاً من الحظيرة ولكن هذه الخادمة وجدت حلاً. وأنا أحب الذين يجدون حلاً!

إنها من صفات الله!

هذه بعض التمارين الرياضية، العقلية، الخيالية. ولكنها علمية فلسفية دينية أيضًا!

نحن نعرف–ولا أقول نعلم علم اليقين– أن هذا الكون عمره ما بين 15 و16 و17 ألف مليون سنة. هذا الكون الذي نعرفه.. أو الذي نعرف عنه، وهذا الكون، الذي بدأ باحتمال، قد بدأ بانفجار ذرة مادية لا أول ولا آخر لكثافتها. وأن هذه الذرة قد انفجرت فملأت الفراغ غازًا ومغناطيسية وطاقة ولا تزال هذه القوى تتلاقى وتتصادم وتتداخل وتميت بعضها بعضًا وتتوالد–واضح؟ ليس واضحًا ولكن هذا هو الذي أستطيعه، ويستطيعه من هو أكثر علمًا مني ألف مرة. فاللغة غير قادرة على احتواء كل هذه الفروض العلمية الفلكية. سؤال: ماذا قبل خلق هذا الكون؟ الجواب أو أحد الأجوبة: لم يكن شيء وإنما كان فراغ، فضاء..

جواب آخر: بل هذا الكون الذي نعرفه ليس إلا كونًا صغيرًا قد انسلخ عن كون كبير.. أو كان أحد الأكوان التي انسلخت عن كون أكبر أي أن هناك أكواناً لا نهاية لعددها.

سؤال: ولكن لماذا وفي تلك اللحظة بالذات يكون هذا الكون. وكيف كانت البداية ولماذا؟

إن هذا السؤال ليس علميًا وإنما هو فلسفي أو ديني ومعناه: أن الله هو الذي خلق ولحكمة عنده فإن الكون هكذا وأودع في الكون قوانين الأشياء التي هي حكمته. ويس.

سؤال: وكيف يتماسك الكون وكيف صارت له القوانين وكيف تتحول المادة إلى طاقة وليس العكس تتحول الطاقة إلى مادة.. كيف تتراجع طاقة الكون كله إلى مادة.. ثم مادة أصغر ثم ذرة كما كانت البداية. وهل هذا ممكن؟

والإجابة ليست عند العلماء ولا عند الفلاسفة ولكن عند الدين. فالله قادر على أن يبدأ وأن ينهي وأن يجعل البداية نهاية، والنهاية بداية (وأرجوك أن تفعل ولو مرة واحدة في حياتك، أن تذهب إلى الصحراء بعيداً في الصحراء بعيدًا عن أضواء المدينة وأن تنظر إلى السماء وأن تصف لي – إن استطعت – ما هذا الجمال والجلال والأبهة!).

والجواب: وكلها بعض من صفات الله!

الأطفال كيف يرون السلام؟!

كانت فكرة ذكية وجميلة: كيف يتصور الأطفال السلام بين مصر وإسرائيل؟، فقد جاءني أحد المدرسين من إسرائيل ومعه رسومات لمائة طفل، كيف يتصورون السلام بيننا.

وطلب هذا المدرس أن يقوم بنفس الدور في أية مدرسة مصرية، وقد وافق الرئيس السادات على الفكرة، وذهبت مع المدرس ووزعنا الأوراق والأقلام على الأطفال الصغار بعد أن حدثتهم عن الحروب والمآسي والدماء والدمار، وسألت إن كان لهؤلاء الأطفال أقارب قد ماتوا في الحروب.. وإن كانوا يعرفون أولادهم وزوجاتهم.. وماذا حدث لهم الآن، وكيف يتخيلون نهاية، كل هذه الكوارث الإنسانية.. وجمعت الأوراق، ولم أجد اختلافا كبيرا بين مفهوم السلام عند الأطفال هنا وهناك، فكلهم رسموا حمامة السلام وفي مناقيرها أغصان زيتون.. ورسموا خطوطًا خضراء وجسورًا وقصورًا.. وزرعوا البنادق في الأرض الخضراء فأزهرت وأثمرت..

وبعض الأطفال كتب أغنيات من تأليفه ليست موزونة ولكنها شاعرية.. طفل من إسرائيل قال: إن العصافير فتحت له النافذة.. ونشرت أجنحتها حملته بعيدا إلى السماء.. وطفلة مصرية رسمت كل

الأشجار على شكل عرائس بفساتين بيضاء.. وكلها خرجت من تحت الأرض دليلا على الحياة والحب والسعادة!

وبعد أن رأى الرئيس السادات كل هذه اللوحات من هنا وهناك قدمت له المفاجأة التي جعلته يضحك ويضحك ويقف ويجلس حتى نزلت الدموع من عينيه، فقد تخيلت طفلة إسرائيلية أن المشاكل التي بيننا ستحل وسوف يعم السلام الجميع إذا تزوج السادات جولدا مائير.. وقد وضعت الاثنين في «الكوشة» واتمخطري يا حلوة يا زينة!

انتقلت مذكرات الملكة فريدة إلى موسكو!

منذ عدة أيام سألت الأميرة فريال، آخر بنات الملك فاروق، عن إحراق أوراق ومذكرات أمها الملكة فريدة، فأيدت حزنها الشديد لأنها علمت أن الأمير ميشيل أورلوف، ابن أختها الأميرة فادية، قد أحرق بعض الأوراق.. وحمل بقية المذكرات معه إلى موسكو.

وكنت قد قرأت بعض هذه الأوراق من مذكراتها المكتوبة بالإنجليزية، واتفقت معها على كتابة مذكراتها لتصحيح بعض ما أساء إلى سيرتها وزوجها الملك فاروق من أكاذيب.

ولا أعرف إن كانت خطاباتي إلى الملكة فريدة قد أحرقت، وهي خطابات شخصية جدًّا، ولذلك لا يفهمها من يقرؤها إلا إذا كانت عنده خلفية عن الذي نتحدث فيه.

وسألت صديقتها الأديبة لوتس عبد الكريم رئيسة تحرير مجلة «شموع».. فقالت إنها فوجئت بإحراق كثير من أوراقها..

وقالت لي الأميرة فريال إنها تعتقد أن أمها أخفت كثيرًا من أوراقها وأوراق والدها الملك فاروق في خزانة سرية في أحد البنوك السويسرية، ولا أحد يعرف رقمها السري، وهي على يقين أن أمها

أودعت فيها بعض مجوهراتها وخطابات من الملك فاروق إليها، وقد سمعت من أمها أن الملك أبدى أسفه على أحداث كثيرة وقعت لها وله.. وكان شديد الحزن على ما أصاب ابنه الأمير أحمد فؤاد، الذي تم طلاقه نهائيًّا من زوجته المغربية اليهودية فضيلة بعد11 عاما في المحاكم!

وعندي بعض الخطابات من الملكة فريدة بالإنجليزية والفرنسية وهي خطابات خاصة جدًّا.. ولم يتوافر عندي سبب وجيه لنشرها أو الحديث عن مضمونها، ولم تطلب مني الملكة فريدة أن أعيد إليها خطاباتها قائلة إنها تثق تمامًا بحسن تقديري للموقف، رحمها الله.

لقد أحببناها وكرهنا الملك فاروق الذي طلقها وأهانها، وأهاننا أيضًا، وعلى الرغم من كل ما حدث لها وله فقد ظلت تحبه وترى أنه كان مصريًّا وطنيًّا صميمًا.. ومشكلته كانت هؤلاء الذين حوله.. الحاشية كانت المصدر الرئيسي لكل الأخبار السيئة والمغرضة.

يارب أنت وحشتني

يارب رحمتك.. يارب حكمتك.. يارب عظمتك.. لقد وحشتني السماء لم أعد أجدها.. فكل شيء مغطى بالسحاب والتراب والهباب. كأنني تحت الأرض أخوض فيما لا أرى ولا أحب، ولا أعرف كيف الخلاص من كل ذلك..

مرة واحدة رأيت السماء في صحراء السعودية.. ما هذه الأبهة، ما هذا الجمال ما هذا الجلال.. لا توجد سماء إلا هناك.. إنك ترى ملايين النجوم قريبة كأنك تمسك بها بيديك.. مع أنها تبعد مئات وألوف السنين الضوئية.. إنني أنتظر يومًا من كل عام، أسافر فيه إلى أحد المراصد الفلكية فوق الجبال وسط المحيط.. هناك لا سحاب ولا ضباب ولا هباب.. ووراء العدسات نأتي بالسماء.. نيران وغازات وحمم وعواصف.. كأنها جهنم.. مع أن الذي أراه مساحة صغيرة من كون لا نهائي.. ما هذا الذي هناك.. ما المعني.. ما الحكمة وما النهاية ما البداية.. وهل هذا الكون واحد أو ألف كون بعضها إلى جوار بعض.. وما معنى كلمة (جوار) وما معنى كلمة فوق وتحت ويسار ويمين.. لا معنى لها جميعًا. فنحن لا نعرف للكون أولا ولا آخرًا، ولا بداية ولا نهاية.. ومنذ حدث الانفجار العظيم من 14ألف مليون سنة..

والكون يتحرك ويسرع في حركته. لماذا وإلى أين؟ وهل سيرتد الكون، ويظل يرتد حتى يدخل بعضه في بعض بعد ألوف ملايين السنين حتى يصير ذرة، كالتي كانت بداية الانفجار العظيم.. لا أحد يعرف..

إن أستاذنا الفيلسوف العظيم كنت، كان يقول: لا شيء يزلزلني إلا النظر إلى الكون حولي، وصوت الضمير في داخلي..

مع أن الكون الذي رآه الفيلسوف ليس كالذي نراه في الصحاري الشاسعة، بعيدًا عن الأضواء والضوضاء..

يارب وحشتني!

ما الذي تراه العصافير

أجد متعة خاصة في أن أقرأ رسائل القراء تعليقًا على مقالات كبار الكتاب في «الشرق الأوسط». وهي تتراوح بين الحب الشديد واللامبالاة والقرف.. وأرى أن القرف ليس الكاتب هو سببه المباشر، وإنما هي حياة الناس في كل مكان. وقد اخترت مقالا جيدًا لأحد كبار الكتاب. وقرأت التعليقات عليه. لا بأس فبعض الرسائل توضح وتضيف، وبعض الرسائل لا قدرة لها على ذلك، وإنما هي تنتهز هذه الفرصة لتقول كلامًا آخر لا علاقة له بالكاتب..

وفي نيتي أن أكتب دراسة عن الذي يراه القراء في كاتب معين أو في إحدى القضايا. وعندي نظرية: أننا نحن الكتاب لا نعرف كل شيء ولا نفهم في كل شيء، ولسنا قادرين على الكثير مما يظنه القراء.. ولو عرف القراء أن الكاتب مثلهم على باب الله، ما كتبوا ولا كانت كتابتهم بهذه القسوة أو بهذا السخاء. إن هناك وهمًا كبيرًا بلغنا جميعًا فلا نكون على حقيقتنا.. وهم الذين أجلسونا على العروش وأعطونا الصولجان وفصل الخطاب. هم ولسنا نحن. ومن أوهامنا المشتركة تتولد هذه الألفة أو هذه المحبة أو هذا (العشم)..

وعند الإغريق أسطورة تقول إن الفنان زويكسس كان يرسم لوحات بديعة. من بين هذه اللوحات واحدة عن الفاكهة، وقد أسعد الفنان أن يجد العصافير تحط على اللوحة وتنقر الفاكهة-إلى هذه الدرجة كانت اللوحة طبيعية حتى خيل للعصافير أنها حقيقية وقد ظل الفنان يضحك سعيدًا بما فعلته العصافير حتى مات!

فالفنان سعيد بأن يكون له صدى أو هذا الصدى.. وهذا الفنان زويكسس قد رسم قبل ذلك لوحات أجمل، ولم يكن لها هذا الأثر.. إما لأن اللوحة كانت عميقة أو غامضة أو سيريالية.. فلم تقترب منها العصافير، وإما لأنها كانت صادقة ولكن العصافير لا تحب هذا النوع من الفاكهة.. والفنان والكاتب يسعده أن يكون له صدى.. أثر.. أن يكتب عنه القارئ ويقول..وهم يقولون.. والكتاب يكتبون والعصافير تروح وتجيء.. وهذه حياتنا!

أعوذ بالله من هذا الإله!

نعمة كبرى أن تكون مؤمنا بالله.. نعمة أكبر أن تستريح إلى أن الله يراك ويسمعك وينصرك على عدوك وعلى نفسك. سعادة ما بعدها سعادة أن تؤمن بالعدل والخير والحب والسلام.. وأن كل شيء له أول وله آخر.. وأن الله حق والموت حق والعدل والخير حق.. تماما كالأوراق المالية التي في يدي لها نفس القيمة كالأوراق المالية في البنك والبورصة وفي أيدي الناس...

أنت لم تعرف ماذا حدث لي يوم ذهبت إلى إندونيسيا وذهبت إلى البنك وسحبت أموالاً جاءت لي من القاهرة. ولم أكد أخرج من البنك وأقلب في الصحف حتى سقطت الجريدة التي في يدي لقد أعلنت الحكومة سنة 1959 إلغاء الورقة المالية من فئة المائة روبية. لقد نظرت إلى الأوراق المالية فوجدتها بيضاء.. لا أرقام ولا قيمة لها..

كأن الدنيا قد تسربت في نفسي واختفى كل شيء حولي وفي يدي وفي فمي وفي عيني وفي رأسي.. لقد أصبح كل شيء لا شيء.. كل الأرقام صفر.. كل شيء قد تراجع قد انسحب قد ابتعد ولم أعد قادرًا على أي شيء.. فلم يعد هناك شيء.. هذه لحظة عدم.. لحظة انعدام كل شيء وكل صلة.. وكل الناس..

ولكن أنت على يقين من أن الذي في يدك والذي على لسانك له نفس القيمة. وأن البنوك ليست إلا خزائن القدرات والإمكانيات والاختيارات.. وأن هذه الأموال لها غطاء من ذهب. مؤكدة يقين. قوائم. ثوابت. رواسخ.. وكذلك من عنده إيمان. من هو على يقين، من ليس وحده في الكون، وإنما وحده وألوف الملايين، وأن كل شيء قريب الأرض والسماء والناس..

فقد أتعسني وعذبني وأضناني كتاب قرأته واستمعت إليه للمفكر الإنجليزي ريتشارد دوكنز عن الإلحاد.. وهو أكثر الكتب انتشارًا لقد أجهد الرجل فلسفته وعلمه وعقله لكي يثبت أن (الله) عند اليهود والمسيحيين والمسلمين ليس هو (الإله) الذي يستحق العبادة، فالإله ليس رب الناس فقط وإنما رب الأكوان كلها ولا يعنيه أمر الإنسان والحشرات والهوام والميكروبات!

إن هذا الكاتب يجرد الإنسان من أعز ما يملك: الدفء والأمل والحب والعدل والخير.. لا أحد يحبه ولا هو يحب أحدًا. إن (الإله) الذي (آمن) به دوكنز قد ألقى بنا وتركنا لأننا لا نساوي شيئاً لا عنده ولا عندنا ولا في هذا الكون!

آمنت بالله وأعوذ بالله من هذا (الإله) الذي يدعونا إليه!!

هل غادر الشعراء من متردم؟!

كان أستاذنا العظيم الفيلسوف الألماني «كانت» يحب أن ينظر إلى القصور القديمة والقلاع المتهدمة. لم يكن الدمار والخراب هو الذي يجذبه، وإنما يحب أن يتأمل كيف كان يمكن بناء الذي انهدم وإصلاح الذي انكسر وتقويم الذي انجرف..

وكان يرى أن أعظم شيء هو النظر إلى الكون والاستماع إلى صوت الضمير.. وقد أصبحت هذه المعاني عميقة في نفوس الألمان، فهم في أعقاب حروب الدمار ينظرون إلى بيوتهم ومزارعهم ومصائبهم والدمار الذي لحقهم، ثم يقيمون مدنًا جديدة وطرقًا طويلة وحاضرًا رائعًا من أجل مستقبل أروع.

أنا رأيت ألمانيا بعد الحرب مباشرة. رأيت في برلين كلها شارعًا واحدًا هو (كيرفريستدام) وهو يشبه شارع الشانزلزيه في باريس.. رأيت في شتوتجرت شارع الملك.. وكان الناس يخرجون من تحت الأرض.. فقد انهدم كل ما فوق الأرض.. وعادوا وأقاموا روائع العمارة والشوارع والمصانع والجامعات.. وكذلك فعلت اليابان، فقد خرجت عقلية عبقرية من تحت الدمار النووي لهيروشيما ونجازاكي. إنها شعوب ترى الدمار وسيلة لتجديد نفسها وعقلها وحياتها

ومستقبلها لقد أدمنوا المستقبل والنور والجديد.. كأنهم أدمنوا الدمار ليصنعوا جديدًا.

والعجيب أنهم في ألمانيا، وكثير من الدول الأوروبية، يتحدون الموت بالحياة الشابة.. ويتحدون الدمار بالعمائر والمصانع والإبداع والاختراع..

ولما سئل الألمان عن سر عظمتهم قالوا: لأننا نمر على الثكنات قبل أن ندخل الجامعة، أي يتعلمون الضبط والربط والقانون والعمل الجماعي والموت والحياة في سبيل ذلك!

فهل شاء القدر أن نكون نحن صورة معاكسة لكل ذلك؟ إذا رأينا خرابًا أو دمارًا أبقيناه كما هو بل أضفنا إليه دمارًا وخرابًا وخواء وفراغًا. انظر إلى حالنا. إننا نهدم أنفسنا في كل مجال وكل ساحة.. إننا بأيدينا نوقف نمونا ونوصد الأبواب في وجوهنا.. لا نسعد بحاضرنا ونعذب أنفسنا بمستقبلنا ونزرع الكراهية والحقد والشك والسلبية في كل شيء.. فلم نعد نثق بأحد ولا بأنفسنا.. وزرعنا لأنفسنا غابات من الشك والشوك واتهمنا غيرنا، مع أن القاتل هو القتيل. ونحن نعيب على طائر البوم: إنها صوت الخراب وصدى الموت. وقد أصبحنا كذلك.. نبكي على الأطلال، كالشعراء القدامى.. وقد تساءل الشاعر القديم: هل غادر الشعراء من متردم؟ الحقيقة إنهم لم يغادروا متردمًا، لا الشعراء ولا الأدباء ولا الساسة.. فكل ما حولنا هو مفردات ومرادفات متردم.. اليوم وغدًا!

فقلت معاذ الله... بل أنت لا الدهر!

ومن رسائلي إلى الصديقة الإيطالية (سينا روصنم) توقفت عند صورة لرسالة غريبة.. وكنت قد نسيتها تمامًا. ولابد أنني نسيتها. لأنني أردت أن أنسى ما جاء فيها من المعاني التي لا أحبها.. أو لا أحب أن تكون هكذا مشاعري نحوها أو نحو أي أحد...

وأنا أترجم إلى العربي ما كتبته أنا بالإيطالية: عزيزتي.. لم يعد لدي ما أقوله. كل ما في دماغي صاغه قلبي كما عرفت.. ليس شعرًا وإنما هو شعور قد اتخذ شكل الشعر. فالشعر هو اللغة الوحيدة للعواطف. فليس معقولاً أن أجعل كلامي في وضوح البديهيات الرياضية. فكل مشاعرنا ليست بديهية! لا هي واضحة ولا هي متفق عليها بيننا.. فإذا قلت الحبيب.. كان له معنى عندك غير الذي عندي أو كان عندك أو سوف يكون عندي.

وليس أحد متهمًا بسوء الفهم أو بالعجز عن التعبير، وإنما هي طبيعة المشاعر ألا تكون دقيقة.. وأن تكون حرارتها طالعة نازلة.. حارة باردة.. قريبة بعيدة.. صادقة أو كأنها كذلك. اختلفنا في قضايا فلسفية. لا مانع ولا ضرر ولا خوف.. مفهوم الله عندي غيره عندك.. والقيامة والجنة والنار وكل المقدسات. لا يهم كل ذلك. فأنا لست مبشرًا بديني لإقناعك.. ولا أنت أيضًا.

أنا مندهش جدًا كيف أن الحب عندك يقين كالبديهيات: 2+2=4..
ليس صحيحًا أن كل ما هو إنساني بديهي. أبدًا. بل كل ما هو إنساني: تقريبي. محتمل. أنا تعبت في إقناعك بأن كل ما ترينه بديهيًا لا أراه كذلك. وكل ما هو بسيط عندك، ليس كذلك عندي. كيف ترين أن الحب بيننا لا خلاف عليه. بل خلاف وألف خلاف. كيف يكون الحب قرارًا منفردًا. منك أو مني. كيف نرضى لأنفسنا أن يكون أحدنا حاكمًا بأمره دكتاتورًا، وما يراه وما يشعر به واجب النفاذ.. من قال ذلك؟ وإذا قال، فليس هذا رأيي..

وأنا أعيد وأزيد.. هذا قراري وقد اضطررت إليه. فلم أفلح في إقناعك.. ولكني أحاول. وأكرر ولست ثرثارًا. ولكنها الضرورة.. ولم أفلح في أن أترجم لها ما قاله الشاعر القديم..

قالت لقد أزرى بك الحب (الدهر) بعدنا.

فقل: معاذ الله. بل أنت لا الحب (الدهر)!

أما الذي أزرى بي، فهو المنطق، فهو العقل، فهو الفهم الموضوعي لكل ما ليس موضوعيًا كالحب مثلاً!

قالوا لي: أرسل ورودًا ولا تذهب إليها!

شعرت بنار الحريق ويدخانها أيضًا. وحزنت. ولكن قضي الأمر. فقد جاءت الأميرات بنات الملكة فريدة والملك فاروق وأحرقن كل خطابات الأم-خطابات فاروق ونازلي وأخوات الملك إلى فريدة، وخطابات بعض ضباط الثورة، وخطابًا واحدًا من الرئيس عبد الناصر- رأيته بعيني وقرأته، وأدهشني ما قرأت، وثلاثة خطابات لي.. ومسودة لخطاب كانت الملكة فريدة قررت أن تبعث به إلى السيدة جيهان السادات وعدلت عن ذلك.. وشاركتها في خطاب إلى السيدة سوزان مبارك.. وغيرت وعدلت وبدلت فيه وترجمته أنا من الفرنسية إلى العربية..

وكنت قد اتفقت مع الملكة فريدة رحمها الله، أن أكتب لها مذكراتها. ووافقت على أن تدافع عن زوجها الملك فاروق وعن نفسها، ورغم أنه جرح كبرياءها كثيرًا، فإنها كانت تحبه. وترى أنه إنسان طيب جدًا، وطني جدًا. وأن مصيبته الوحيدة ليست الحاشية فقط، بل أمه الملكة نازلي!

وكانت الملكة فريدة (ملكة) بمعنى الكلمة. ذات هيئة وأبهة وتواضع ويساطة. كانت ملابسها بسيطة، ولكنها في هذه الملابس

أكثر بساطة. وأما كلامها وسلامها وحركتها وقعودها وقيامها فملكة عظيمة الاحترام. وهي واقعية تمامًا تعلم أن كل شيء قد راح وأراح، وأنها أصبحت بعيدًا عن العرش والتاج، ولكن الذين يعرفونها ويحبونها. يرونها على عرشها ويرون التاج الماسي على رأسها ووجهها الجميل وبريق عينيها وابتسامتها البديعة - هي لم تضع تاجًا ولم تجلس على عرش. ولكننا نحن الذين نفعل ذلك، دون علم منها، كلما رأيناها!

وهي مريضة طريحة فراش الموت بعد حقنة غير معقمة، أرسل إليها د.عاطف صدقي رئيس وزراء مصر الأسبق باقة من الورد فأشارت بيديها إلى إلقاء هذه الورود خارج الغرفة، فإن الذوق والأدب والبروتوكول يقضي بأن يجيء رئيس الوزراء بنفسه، ففي كل الدول المتحضرة يفعلون ذلك!

ولما ذكرت د.عاطف صدقي بذلك قال: «يا اخويا قالوا لي ابعث لها بورد، ولم يقولوا لي اذهب إليها؟!».

ورود عند قبر الجندي المعلوم!

كان الرئيس السادات من كبار الحالمين. ولكنه يحلم وعيناه مفتوحتان. وكان عنده إحساس بأنه يلمس أحلامه بيده. وكان إذا استرسل في أحلامه جعلك تشعر بالخوف. كيف يحلم بهذه التعديلات الصعبة جدًّا.. ولم تكن له أحلام خاصة، ولم تكن تهمه أسرته في الدرجة الأولى.. وإنما الأسرة المصرية والأسرة العربية والأسرة العالمية. ولكنه كان مصريًا صميمًا.

وكان يحلم بالسلام على الأرض وبالناس المحبة-كما يقول الإنجيل. ولذلك فكر في إقامة نصب تذكاري للأديان الثلاثة في سيناء: مسجد وكنيسة ومعبد يهودي مفتوحة بعضها على بعض. يدخلها الزائر من أي باب. فالأديان للجميع والله واحد أحد.

وقد أعطاني هذا المشروع وطلب مني أن أصوغه أدبيًا وفكريًا وأن أتهيأ للدعوة له في كل مكان. وتطوع فنانون كثيرون لعمل هذا النصب التذكاري الرفيع المستوى. وكان السادات يحلم بأن يكون هذا النصب للناس ومن الناس، وذلك بأن يتبرع كل الناس بأي مبلغ من المال، بقرش أو حتى بمليم، ومن حصيلة ذلك يقام هذا البناء الرمزي العالمي.

وليس غريبًا عنا التقاء الأديان الثلاثة في بقعة واحدة. ففي (مصر القديمة) أحد أحياء القاهرة – يوجد مسجد عمرو بن العاص والمعبد اليهودي ابن عذرا والكنيسة التي اختبأ تحتها السيد المسيح وأمه مريم العذراء. ونحن نرى في ذلك دليلا على التسامح واحترام الأديان: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.. وكان السادات يحلم بأن يدفن تحت هذا الصرح التذكاري.. أو يدفن في قرية (ميت أبو الكوم).. ولم يخطر على باله أن أهله هم الذين سيقتلونه بعد أن حقق النصر والسلام، وأعاد أرضنا إلينا، فأقيمت المدن الجديدة وصارت صحارينا خضراء..

ولكن زوجته السيدة جيهان السادات هي التي قررت أن يدفن عند قبر الجندي المجهول. وكانت واقعية وأبعد نظرًا. فلا أحد يضع إكليلاً من الزهور عند قبر الجندي المجهول، إلا وضع زهورًا عند قبر الجندي المعلوم الذي استشهد من أجل النصر والسلام والرفاهية.. وكان مقتل السادات دليلا على أننا لم نتهيأ بعد للمحبة والسلام بين الأديان ولا حتى في ديننا الإسلامي– مع الأسف!

ما زلت أمارس لعبة الصبر!

لعبة الصبر – تعلمتها من الشاعر اللاتيني فرجيل، فكان يكتب وينظم ويترك ذلك بعض الوقت قبل أن يطلع الناس على ما كتب.. وكان يسرف على نفسه كثيرًا. فقد يترك ما أبدعه شهورًا. وأحيانًا سنوات!

وقد تعلمت أن أكتب ولا أتعجل النشر. أكتب وأترك ما كتبت بعض الوقت. وعندما أعود إلى قراءة ما كتبت فقد أحذفه. وكأني ما كتبت. ولم أندم على ذلك. فأنا عندما أكتب أكون في حالة مختلفة، فإذا عدت اختلفت حالتي أيضًا. وكنت قد جمعت وحفظت ألوف الصفحات كتبتها عندما كنت طالبًا. وكان في نيتي أن أعود إليها لأعرف بالضبط كيف كنت أفكر وكيف كنت أعبر.. شيء واحد هو الذي همني وأهمني. فقد كان خطي أجمل وأوضح.. أما الآن فإن مدير مكتبي هو وحده القادر على فك رموز ما أكتب!

أما الموضوعات فقد كانت بلا قيمة. ولذلك مزقت كل هذه الأوراق وكان ذلك دليلا على أن صبري قد نفد، وأنني نسيت الدرس الذي تعلمته من فرجيل.

ثم إنني أقوم بمراجعة وتصحيح كتبي التي أعيد طبعها. أما المقالات فإنني أكتبها وأراجعها وأصححها من دون ملل..

وعندما كان أستاذنا المستشرق الألماني باول كراوس يطبع قاموسه الشهير (عربي- يوناني-لاتيني) كنت أنا الذي أراجعه في المطبعة.

وكان الوصول إلى المطبعة صعبًا والبقاء فيها أصعب.

وتعلمت أيضًا من أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوي أن أعمل وأعمل بلا ملل.. فالملل هو السوس الذي يأكل الطاقة الإبداعية. وكان أستاذنا عباس العقاد يكتب في صحيفة (الأساس) التي أعمل بها. وتبرعت بتصحيح مقالاته.. وأسعده ذلك وأسعدني. حتى كان ذلك اليوم الفظيع. فالأستاذ العقاد بعث بالكلمة التي ألقاها في المجمع اللغوي ترحيبًا بصديقه الأستاذ عبد القادر المازني. وأنا أحب الرجلين. وعكفت على تصحيح المقال.وكتبت له عنوانًا وسهرت حتى ساعة متأخرة.. ولما طلع النهار وشرعت في قراءة المقال: يا نهار أسود -أنا الذي صرخت- فقد حدث شيء غريب فكل الأخطاء التي حذفتها من المقال قد أعادها عمال المطبعة إلى المقال نفسه؟!

ثم كان خطاب الرئيس السادات في الكنيست وقد راجعه الرئيس أكثر من مرة وطلب مني ومن الأستاذ موسى صبري أن نعيد وأن نزيد.. وأن نجعله موسيقيًا إذا استطعنا وكان يقرأ كلمته بصوت مسموع..

وما زلت أمارس لعبة الصبر على الذي أقرأ والذي أفهم ولا أفهم، والذي أكتب والذي أحذف والذي أعيد وأزيد فأرجو أن تصبر أنت أيضًا!

إنها أحلام الجياع والخائفين!

مثل شعبي يقول: الجوعان يحلم بسوق العيش..

والعيش في اللهجة المصرية يعني الخبز.. والمثل الأوروبي يقول: الإنسان ملك وهو يحلم. متسول عندما يصحو.. أي أن هناك واقعين: الحلم واليقظة.

وقصص «هاري بوتر» للأديبة الإنجليزية رولنج هي أحلام المظلوم والجائع والوحيد والبائس.. فالأديبة الإنجليزية لم تكتب هذه القصة للأطفال، وإنما لكل إنسان..

وأنا لم أقرأ إلا الجزء الأول فقط. ولم أشاهد إلا الجزء الأول لكي أعرف هذه الأديبة. وعرفتها وأعجبتني جدًّا.

فأسلوبها مليء بالحياة والإثارة ولا حدود لخيالها.. فهي تتدفق بالمعاني والمعلومات وتمسك القارئ من رموش عينيه.

إيه الحكاية؟ إن الطفل هاري بوتر يتيم. ويلقى المعاملة القاسية البشعة جدًّا من أقاربه. ثم إنهم يهملونه ويجعلونه ينام تحت السلم حيث تلتقي البرودة والجوع والقسوة والهوان.. وفجأة يتلقى خطابًا من مدرسة السحرة. وقبل أن يمد يده إلى الخطاب تكون يد أخرى قد

سبقته. يد أحد أقاربه. ولكن بعد ذلك تجيء الطيور تملأ البيت بالخطابات. ويقرأ واحدًا منها. إنها رسالة من مجهول تقول: إنه ساحر بالفطرة. وأن كل ما يحتاجه هو أن يعطى فرصة. وقد واتته الفرصة فذهب وتعلم ومارس وقفز على الواقع الحزين. وأضيفت له قوة خارقة. ولم يعد ذلك الذليل المهيض الجناح. إنه قوة كامنة. قوة سوف تنقذه مما هو فيه–وما كان ينبغي أن يكون فيه..

وتنتقل الأديبة إلى عالم السحر والغيبيات والمعجزات التي تشعل النار في خيال الأطفال وتزلزل الواقع..

وينتقل هاري بوتر إلى عالم آخر ومعه كل الذين حوله..

وتجيء قوى سحرية تناديه ويستجيب لقد انتقل هاري بوتر مع زملائه إلى دنيا أخرى جذابة جميلة ومعه مئات ملايين الأطفال في كل الدنيا.. ينتظرون الكتاب والفيلم ويضعون ملايين الجنيهات الإسترلينية في جيب المؤلفة التي كانت تعمل بأربعين جنيهًا في الأسبوع.. والآن بموهبتها أصبحت أغنى من الملكة. وكان أستاذنا توفيق الحكيم يرثي لحال الأدباء عندما قرأ أن لاعبًا لكرة القدم قد اشتروا جزمته بعشرين مليونًا. ويقول الحكيم إن هذا المبلغ يعادل ما كسبه الأدباء منذ أيام هيرودوت حتى اليوم. ولم يعش الحكيم ليرى ماذا كسبت رولنج من رواية واحدة– أكثر من 700 مليون جنيه إسترليني.

رأيي الشخصي أنها تستحق ذلك.

واعتذرت للشعب الهندي

في سنة 1959 رأيت الهند لأول مرة. وكتبت وأسرفت وأزعجني ما رأيت في الشوارع وفوق الأسطح.. وكيف الموت وكيف الدين وإحراق الجثث.. وكيف النسور والصقور تأكل الجثث بدلاً من دفنها وحرقها.. فالطيور ترتفع بأرواح الموتى إلى السماء.. ولكن أذهلتني الحضارة الهندية والديانات الهندية.. وأدهشني كيف أن الهند لا تزال تعبد البقرة كما عبد بعض شعوب المنطقة العجل أبيس، ورأيت حركة المرور كلها تقف لأن البقرة نامت في الشارع ولا يجرؤ أحد على تحريكها.. وكيف أنها تستطيع أن تدخل أي «سوبر ماركت» ويوسع لها الناس الطريق.. وقد اعتادت على ذلك مئات السنين.. فلا شيء يزعجها.. تمامًا كالحمام الذي يوجد في الميادين في العواصم الأوروبية.. لا أحد يزعجه، ولا أحد يأكل الحمام مسلوقًا أو محمرًا أو محشيًا كما نفعل.. ولذلك يرون أن أكل الحمام وحشية لأننا نأكل رموز السلام..

وأخذت راحتي في الكتابة وفجأة وجدت ما كتبت مترجمًا في الصحف الهندية مع التعليق العنيف والشتيمة، وبعملية حسابية بسيطة قررت أن أهرب من الهند.. فلو كل واحد هندي رماني بحجر

لوجدتني تحت هرم أكبر من هرم خوفو، وهربت إلى جزيرة سيلان أبحث عن الذي قد حدث في العشرين عامًا التي أمضاها أحمد عرابي باشا في هذا المنفى..

وبعد عشرين عامًا زرت الهند، ورأيت تقدمها في كل الفنون والصناعات والعلوم، وبلغت مرحلة الاكتفاء الذاتي في الزراعة.. ثم إنها تقدمت في صناعة السينما وفي النشاط النووي، ومن المستحيل أن يكون المليار مواطن هندي من العلماء والأدباء والشعراء.

وكتبت اعتذارًا للشعب الهندي، فقد كانت نظرتي له خاطئة، وليست متأنية، ومن الغريب أنني تلقيت برقيات شكر ممن لا أعرف من الصحافيين والأدباء الهنود فازددت إعجابًا بهم!

صدقيني إن استطعت!

من رسائلي إلى الصديقة سينا روصنم وأنا أترجمها من الإيطالية: صدقيني أنا لا أريد أن أكتب لك.

فأنا لا أقول شيئًا. وأكثر عباراتي علامات استفهام. وبدلا من أن أحدثك فإنني أسألك، وبدلا من أن أسألك أتساءل على مرأى ومسمع منك. فكأنني لا أحدثك، وإنما أحدث نفسي. وهذا يجعل موقفي مضحكًا. فأنت تتوقعين غير الذي أكتب. وليس معنى ذلك أنه لم يعد عندي ما أقوله لك. ولكن عندي. وما عندي هو أنني أحاول أن ألقي عليك بعض همومي. وهمومي كلها في دماغي على كتفي. أما قلبي ففي مكانه عندي وعندك. وقلبي يدق في قلبك..

مرة في قلبك ومرة في عقلي – اعذريني لقد أفسدتني الفلسفة. ولم أعد أجد لها علاجًا– أي لم أجد لي علاجًا والحمد لله أن الله قد شفاك وعافاك من هموم الفلسفة. ولا أعرف كيف. ويوم ذهبنا معًا إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين. ورأيت وجهه الصافي وعينيه الأكثر صفاء وصوته الهامس ورنين الصوت الذهبي أو الماسي لا أعرف كيف أصفه. وباركك وباركني. أنت تقولين أنه شفاك من مرض الفلسفة. فلماذا استعصى الشفاء عليَّ أنا؟!

قولي لي يا سينا هل لم يعد لدي ما أقوله.. هل كل ما عندي علامات استفهام وتعجب. إن أستاذنا سقراط كان إذا قال له أحد: صباح الخير سأله فورًا وما تعريفك للخير.. وبدلاً من أن يرد التحية فإنه يجدها مناسبة لسؤال جديد وقضية جديدة.. والله يا سينا أنا تعبان جدًّا ومعذب جدًّا. وتعبي بلا فائدة، وعذابي بلا معنى. فأنا كالفقير الهندي أتقلب على مسامير لها شكل علامات الاستفهام والتعجب.. وأحلم بنقطة في نهاية السطر.. والمصيبة أن سطوري طويلة وبلا نهاية..

قولي لي يا سينا -الله يخليك- كيف ترين دائي؟! وكيف ترين شفائي؟! وهل هناك أمل على يديك.. أو معك أو عندك؟! هل أنا على باب جهنم؟! للشاعر دانتي أقرأ وأعيد وأزيد في الحكمة التي كتبها على الباب: أيها الداخلون اتركوا وراءكم أي أمل في النجاة!

النحاس: حتى لا يتآكل!
والفضة: حتى يظل لامعًا!

كل الناس ممثلون إلا بعض الممثلين. وكان الموسيقار محمد عبد الوهاب من كبار الممثلين لا على الشاشة وإنما في حياته الاجتماعية.. نسمع منه أجمل وأحسن كلام. وهو لا يعني كلمة واحدة مما يقول. فهو يعرف أين يذهب كلامه.. فإن كنت صحفيًّا فعيناه على ما سوف تنشره وإن كنت إذاعيًّا، فأذنه على ما سوف تقول. فهو أحسن مدير علاقات لمحمد عبد الوهاب.

وأنا كنت أصف محمد عبد الوهاب بأنه مثل العملة المعدنية.. من فضة ومن نحاس. النحاس حتى لا يتآكل والفضة حتى لا تكون أكثر لمعانًا.. وكنت أقول إن عبد الوهاب التاجر هو الذي أبقى لعبد الوهاب الفنان.. وإن عبد الوهاب كالذئاب ينام بعين واحدة. وإنه كالحصان ينام واقفًا!

والأمثلة كثيرة عند الذين يعرفونه ويحبونه ويكرهونه. أختار مثلا واحدًا.. عندما توفيت فايزة أحمد. كان عبد الوهاب في باريس. اتصلت به. وسألتني زوجته. نهلة القدسي عن أخبار مصر وأخباري.. وقلت لها: فايزة أحمد ماتت..

أي أنني أريد أن أنقل إليه الخبر. وأن أعرف رأيه في هذه الخسارة الفادحة. وعبد الوهاب يعلم علم اليقين أن الذي سيقوله سوف أنشره غدًا.. وبسرعة قال لي عبد الوهاب: أهلا يا أنيس. أنا في انتظارك وعندي أدوية جديدة للزكام.. وفي الجناح المجاور لنا يوجد الأمير بدر بن عبد العزيز. متى ستجيء؟

ولكنني بادرته بأن فايزة أحمد ماتت. قال: البقية في حياتك فأنت عاشقها الأول بعد عشقك لأم كلثوم..

ثم بسرعة المحترفين الممثلين اتخذ عبد الوهاب صوت المذيع فقال: إن فايزة أحمد لم تكن مطربة ذات صوت وحشي، وإنما هي أوركسترا وحدها.. إنها أوبرا متعددة الأدوات والأصوات والنغمات وخسارتها فادحة..

وسكت عبد الوهاب.. ثم تغير صوته تمامًا وقال: هه.. وانت جاي إمتى..

وكنت قد سجلت الحوار بيننا. وفي هذه اللحظة جاءتني الإذاعية الشهيرة نادية صالح رئيسة إذاعة الشرق الأوسط تسألني رأيي في وفاة فايزة أحمد. قلت لها: أنت محظوظة جدًا. فسوف أعطيك سبقًا إذاعيًا.. حوارًا بيني وبين محمد عبد الوهاب عن وفاة فايزة أحمد..

وعرفت من السيدة نهلة القدسي أن عبد الوهاب عندما حدثني كان يعلم أن فايزة أحمد قد ماتت!

قبل أن تعترض.. اشرح لي!

شربت القهوة وقدمت الفنجان لمن يقرؤه. وانتظرت واندهشت. وحدث ما قالته قارئة الفنجان.. مرة وألف مرة في مصر وخارج مصر.. وقدمت كفي لمصريين وهنود واستمتعت وتطلعت وانتظرت وحدث ما لم يخطر على بال. وليست مرة وإنما عشرات المرات. فواحد قال لي: يوم كذا سوف لا تكون في هذا المكان ولا في هذا العمل. وحدث ما قاله باليوم والساعة.

وأعرف عددًا من قراء الكف في مصر وخارجها..

وذهبت إلى كينيا وفي غاباتها، وقفنا في ذهول أمام رجل عريان ملط -أي عريان تمامًا- ولا قدم لنا قهوة ولا مددنا له أكفنا.. وإنما هو أخرج بعض عظام الدجاج من كيس قديم قذر.. وطلب إلى واحد منا أن يلمسها وأن ينفخ فيها..

وألقاها على الأرض وأطلق ثعلبًا من قفص، وجاء الثعلب وراح يقلب في العظام ثم دخل القفص.. أما الرجل فقال كلامًا عجيبًا لواحد منا.

وكان صحفيًّا أمريكيًا. ولكي يتأكد الصحفي مما قال هذا الساحر اتصل بزوجته فوجدها في المستشفى كما قال الرجل. وكانت قد أصيبت في حادث سيارة كما قال الرجل.. هذا الرجل يعيش عاريًا في الغابات لا يعرف من الذي حوله شيئًا. ولكن كيف رأى وتأكد مما أصاب زوجة الصحفي في نيويورك؟!

وأنا في هونج كونج جلست إلى أحد الصينيين الذي يقرأ فنجان الشاي.. أي أوراق الشاي في قاع الفنجان! ما الذي رآه وكيف رآه.. وكيف توقع لي أن يحدث كذا وكذا.. ولآخرين كانوا معي.. أين هذا الذي رآه في أوراق الشاي أو مسحوق البن.. أنا شخصيًّا لا أعرف كيف، ولكن أعرف أن السبيل إلى معرفة الحقيقة ليس واحدًا.. ولكنْ هناك سبل كثيرة.. علمية وطنية وخرافية.. وإلا اشرح لي ما هذا الذي حدث ويحدث وأنا على يقين من كل ذلك!

الفهرس

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستــاذ
أنيـــس منصـــور

(أ) ترجمة ذاتية:

1 – في صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
2 – عاشوا في حياتي.
3 – إلا قليلاً.
4 – طلع البدر علينا.
5 – البقية في حياتي.
6 – نحن أولاد الغجر.
7 – من نفسي.
8 – حتى أنت يا أنا.
9 – أضواء وضوضاء.
10– كل شيء نسبي.
11– لأول مرة.
12– شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

13– الحائط والدموع.
14– وجع في قلب إسرائيل.
15– الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل).
16– عبد الناصر – المفترى عليه والمفتري علينا.
17– في السياسة (3 أجزاء).
18– الدين والديناميت.
19– لا حرب في أكتوبر ولا سلام.
20– السيدة الأولى.
21– التاريخ أنياب وأظافر.
22– الخالدون مائة – أعظمهم محمد (ﷺ).
23– على رقاب العباد.
24– ديانات أخرى.
25– وكانت الصحة هي الثمن.
26– الغرباء.
27– الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

28– عزيزي فلان.
29– هي وغيرها.
30– بقايا كل شيء.
31– يا من كنت حبيبي.
32– قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسري فريدريش ديرنمات:
33– رومولوس العظيم.
34– زيارة السيدة العجوز.
35– زواج السيد مسيسبي.
36– الشهاب.
37– هي وعشاقها.
** للأديب السويسري ماكس فريش:
38– أمير الأراضي البور.
39– مشعلو النيران.
** للأديب الفرنسي جان جيرودو:
40– من أجل سواد عينيها.
** للأديب الأمريكي آرثر ميللر:

41- بعد السقوط.
** للأديب الأمريكي تنسي وليامز:
42- فوق الكهف.
** للأديب الأمريكي يوجين أونيل:
43- الإمبراطور جونس.
** للأديب الفرنسي يوجين ليونسكو:
44- تعب كلها الحياة.
** للأديب الفرنسي أداموف:
45- الباب والشباك.
** للأديب الإسباني أرابال:
46- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

47- الحنان أقوى.
48- من أول نظرة.
49- طريق العذاب.
50- ألوان من الحب.
51- شباب.. شباب.
52- مذكرات شاب غاضب.
53- مذكرات شابة غاضبة.
54- جسمك لا يكذب.
55- الذين هاجروا.
56- غرباء في كل عصر.
57- أظافرها الطويلة.
58- هموم هذا الزمان.
59- زمن الهموم الكبيرة.
60- الحب الذي بيننا.
61- عذاب كل يوم.
62- كيمياء الفضيحة.
63- كل معاني الحب.

(و) دراسات علمية:

64- الذين هبطوا من السماء.
65- الذين عادوا إلى السماء.
66- القوى الخفية.
67- أرواح وأشباح.
68- لعنة الفراعنة.
69- دقات الصحة هي الثمن.

(ز) نقد أدبي:

70- يسقط الحائط الرابع.
71- وداعًا أيها الملل.
72- كرسي على الشمال.
73- ساعات بلا عقارب.
74- مع الآخرين.
75- شيء من الفكر.
76- لو كنت أيوب.
77- يعيش.. يعيش.
78- الوجودية.
79- طريق العذاب.
80- وحدي.. مع الآخرين.
81- ما لا تعلمون.
82- لحظات مسروقة.
83- كتّاب عن كتب.
84- أنتم الناس أيها الشعراء.
85- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
86- أوراق على شجر.
87- في تلك السنة.
88- دراسات في الأدب الأمريكي.
89- دراسات في الأدب الألماني.
90- دراسات في الأدب الإيطالي.
91- فلاسفة وجوديون.
92- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

93- حول العالم في 200 يوم.
94- بلاد الله خلق الله.
95- غريب في بلاد غريبة.

96- اليمن ذلك المجهول.
97- أنت في اليابان وبلاد أخرى.
98- أطيب تحياتي من موسكو.
99- أعجب الرحلات في التاريخ.
100- ماذا يريد الشباب؟
101- الرصاص لا يقتل العصافير.

(ط) مسرحيات كوميدية:

102- مدرسة الحب.
103- حلمك يا شيخ علام.
104- مين قتل مين؟
105- جمعية كل واشكر.
106- الأحياء المجاورة.
107- سلطان زمانه.
108- العبقري.
109- كلام لك يا جارة.
110- فوق الركبة.
111- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
112- يوم بيوم.
113- إنها الأشياء الصغيرة.
114- إلا فاطمة.
115- القلب أبدًا يدق.

(ي) المسلسلات التليفزيونية:

116- حقنة بينج.
117- اتنين.. اتنين.
118- عريس فاطمة.
119- من الذي لا يحب فاطمة؟
120- غاضبون وغاضبات.
121- هي وغيرها.
122- هي وعشاقها.
123- العبقري.
124- القلب أبدًا يدق.
125- يعود الماضي يعود.

(ك) كتب (مقالات):

126- ثم ضاع الطريق.
127- النجوم تولد وتموت.
128- هناك أمل.
129- أحب وأكره.
130- الحيوانات ألطف كثيرًا.
131- مصباح لكل إنسان.
132- أتمنى لك.
133- لعل الموت ينسانا.
134- اقرأ أي شيء.
135- ولكني أتأمل.
136- حتى تعرف نفسك.
137- الحب والفلوس والموت.. وأنا.
138- نحن كذلك !!
139- اللهم إني سائح.
140- كائنات فوق.
141- تعال نفكر معًا.
142- آه لو رأيت !..
143- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
144- انتهى زمن الفرص الضائعة !
145- هناك فرق.
146- الرئيس قال لي.. وقلت أيضًا - الجزءان الأول والثاني.
147- يا نور النبي.
148- وأنت ما رأيك؟
149- حضارة الإوز والبقر.
150- حلمنا الجميل.
151- ضاع الجيل ضاع.
152- قالوا (الجزءان الأول والثاني).
153- وآخرتها.
154- من أول السطر.

155– أظافرها الطويلة.
156– القلب لا يمتلئ بالذهب.
157– تكلم حتى أراك.
158– الذي خرج ولم يعد.
159– ليلة في بطن الحوت.
160– والله زمان يا حب.
161– أجيال من بعدنا.
162– قلبك يوجعني.

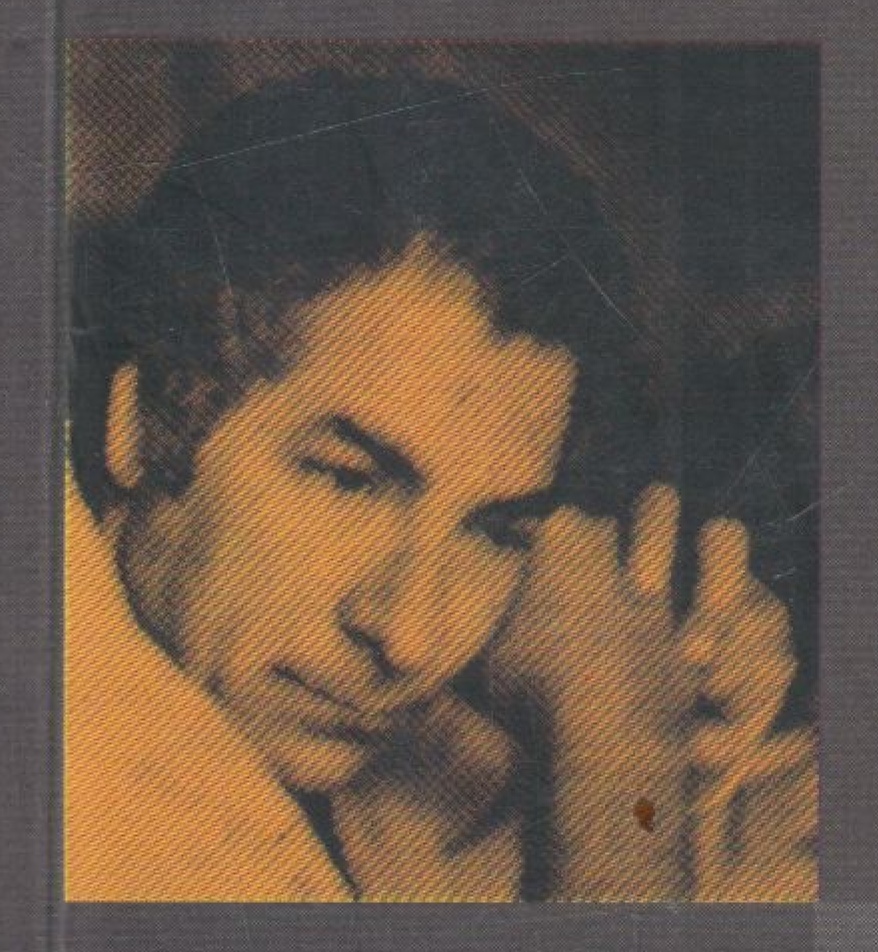
(ل) الترجمات القصصية:

163 – رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكي أرفنج والاس.
164 – (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.
165 – (لو كنت مكاني) للأديب السويسري ماكس فريش.
166 – (قصص مورافيا) للأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا.
167 – (الجلد) للأديب الإيطالي كورتسيو ملبارته.
168 – (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكي جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

169 – الفلسفة الوجودية الألمانية ـ لإميل تسلر.
170– الفلسفة الوجودية الفرنسية – لجان جاك رسو.
171 – معنى العدم عند هيدجر وسارتر – لجانيت أردمان.
172 – مسرح العبث الفرنسي – لإتيان ماريبو.
173– الفيلسوف الروسي برديانف – لفيكتور لوزتسيف.
174 – من كيركجور إلى مارسيل – لأنطوان بابيف.
175– سيمون دبوفوار تلميذة رصينة – لفرنسواز روسلان.
176 – رسائلها إليه – لفرنسواز روسلان.
177 – فاشلون لكن نبلاء – لجان ماري روار.
178 – ما الميتافيزيقا؟ – لمارتن هيدجر.
179 – الوجودية فلسفة إنسانية – لجان بول سارتر.
180 – فلسفة حنا أرنت – تلميذة للفيلسوف الألماني مارتن هيدجر – لآدم برجشتاين.
181 – كروتشه فيلسوف الحرية – لإيرابيلا دلورنتس.





أجيال من بعدنا

عندي خطابات للأستاذ العقاد إلى المحبوبة مي زيادة لا يصح نشرها الآن لما فيها من مشاعر مؤلمة .. عندي خطابات كتبتها السيدة نعمت علوي للشاعر الألماني ريلكه وهي الفتاة المصرية الجميلة التي مات على صدرها .. وعندي خطابات لعبد الحليم حافظ. فقد كان يحب من كنت أحب أيضًا وكان يبعث إليها بمكنون نفسه وكأنه يحدث نفسه ويقول لها رأيه في كل الذين حوله وعندي تسجيلات صوتية للرئيس السادات بعضها نشر وبعضها أوصى بأن ينشر فيما بعد في الوقت الذي أراه مناسبًا ولايزال الوقت غير مناسب ولم يكن السادات في هذه التسجيلات معاديًا تمامًا للملكية ولكن يؤكد أن فسادًا عظيمًا أصاب مصر الثورة ورأيه في زوجته وأولاده واحدًا واحدًا - منتهى الحب في كل الذي قال - وآراؤه في زعماء إسرائيل وإيران وسورية ولبنان واحدًا واحدًا، وكان طلب السادات من الأجيال من بعده أن تكون واقعية وأن تحاسب نفسها أكثر مما تحاسب الآخرين.

عندي أسرار لا أستطيع نشرها ولكن سوف أتركها لمن يعنيه الأمر .. لأجيال من بعدنا.



